الدكتور مصطفى غالب

في سبيل موسوعة فلسفية (٢٠)

اخوان الصفا

دار ومكتبة الهلال

في سبيل
موسوعة
فلسفة

إخوان الصفا
وخلان الوفا

تأليف
الدكتور مصطفى غالب

منشورات
دار ومكتبة الهلال

١٩٨٩

الإدارة العامة: دار ومكتبة الهلال بئر العبد - شارع مكرزل

مقدمة

جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء هذه المدرسة العقلانية التي أصبحت بمرور الزمن المدماك الذي ارتكزت عليه المعتقدات الباطنية الفلسفية التوحيدية في الاسلام ، والتي تلألأت وأينعت ثمارها ، مبدعة خالقة لأكبر نهضة عرفانية عرفها التاريخ الاسلامي ٠

واعتبر العلماء من الشرق والغرب ان فلسفة هذه الجماعة العرفانية كالحديقة الوارفة الظلال ، تجسد ما تشتهي الأنفس ، وتلذ الأعين ، وما يتفاعل في الحياة الاسلامية في كافة مراحلها من العقلانية ، والاخلاق والسلوك الاجتماعي ، والاخاء الواعي المؤمن السالك في معارج التوحيد ، وسلالم المعرفة الحقانية ٠

وقبل أن نصور صورة واضحة جلية تعيننا وترشدنا على تفهم مبادىء وأفكار هذه الجماعة الروحية ، وصلتهم بالحركات الباطنية التي ظهرت في العالم الاسلامي ، لا بد لنا من القاء نظرة دقيقة شاملة على البيئة والعصر الذي ظهرت فيه جماعة (اخوان الصفاء وخلان الوفاء) ، لنستعرض العلل والاسباب التي تكوكبت وتفاعلت فأوجدت هذه الجماعة ، وما بينها من العلاقات والانفعالات ، وما يترتب عليها من الآثار •

ولا بد لنا ونحن في هذا الصدد من أن نبعث نورا شعشعانيا على ما غمض من جوانب الاحداث، وما دق من أسبابها وعللها الاجتماعية والسياسية والدينية • في الوقت الذي ظهرت فيه رسائل (اخوان الصفاء وخلان الوفاء) حيث كان العالم الاسلامي مظهرا من أكبر مظاهر الفوضى والبلبلة والاضطرابات ، حيث تناقضت فيه حياة المسلمين العامة أشد التناقض ، وسادت النعرات العصبية ، والدينية ، والشرف ، والشهوات ، والفساد ، والظلم ، والتعسف ، وتسارع الناس الى المال والجاه والمجون •

وعمت الضائقة الاقتصادية ، البلاد من أقصاها الى أقصاها ، وساء نظام الحكم ، وكثرت الفتن الدينية والعنصرية ، وأزهقت آلاف الارواح البريئة على مذبح النعرات المذهبية ، وتصارع التيارات الفكرية والعقلانية في أتون الأفكار اليونانية ، والهندية ، والفارسية .

ويبدو ان العباسيين الذين اتخذوا من قرابتهم للنبي عليه الصلاة والسلام أفتك سلاح في انتزاع الخلافة والزعامة والقيادة الاسلامية من الأمويين ، قد استأثروا بالسلطان والخلافة دون اخوتهم في الصراع والنضال ، وسندهم في استخلاص الخلافة ـ الهاشميون ـ الاقرب منهم نسبا ، وأحقية في تسنم الخلافة ، بل ما أن قوي ساعدهم ، وتركزت أقدامهم ، واستأصلوا شأفة الأمويين ، حتى التفتوا الى الهاشميين فرموهم بنعوت الانحراف ، وصفات التآمر ، وتتبعوهم بالقتل والتنكيل والتشريد والابادة ، فأمعنوا من جانبهم بالتقية والستر ، والابتعاد عن المجالات العامة والخاصة في مجتمعاتهم الاسلامية ، وعاشوا مشردين يتنقلون في الخفاء من بلد الى بلد ، ومن صقع الى صقع .

ولكننا نلمس من ناحية ثانية ان خلفاء بني

العباس ، الذين منحتهم الدنيا كأس غرورها ، يتنكرون بكل صفاقة وقحة الى عروبتهم ، كما تنكروا لآل البيت ، فيعمدوا الى ابعاد العناصر العربية المؤمنة عن البلاط ، وما يتبعه من مناصب ومراتب ، واستعاضوا عنها بالعناصر الشعوبية التي لا تمت اليهم بأية صلة ، أو قرابة جنسية أو عرقية ، فاستبد هؤلاء بكافة مرافق الدولة ومؤسسات الخلافة ، وتلاعبوا بمصير الخلفاء ، فتجزأت رقعة الخلافة ، وأقيمت في قلبها عدة دويلات وامارات ، وزعامات ، تنهد الى العب بشوق من شهوات الدنيا وما فيها من اغراءات مادية ومعنوية ٠

وسرعان ما تحول الخليفة العباسي الى كرة تتقاذفها الجند والجواري والغلمان ٠ وتتصارع في ساحاتها الواسعة الطوائف والمذاهب والأديان ٠ كل هذه العوامل والاسباب تضافرت وتكوكبت فكان لها الأثر الفعال في قيام جماعة من الحكماء فكروا في واقع الأمة الاسلامية ، فسخروا كل ملكاتهم العقلية والروحية لصلاح الدين والدنيا ، ووقفوا كالطود الشامخ في وجه التيارات المتصارعة، داعين الى الفضيلة والتمسك بأمور الدين الصحيح

وجوهر القرآن . وذلك وفق مخططات علمية تنهد الى بذر بذور العدالة الاجتماعية وفق منطلقات شرعية اسلامية ، بين جميع الطوائف والطبقات والمذاهب والأديان المشكلة منها الخلافة العباسية ، وتهدف الى رص الصفوف ، وجمع الكلمة بين المستائين ليصار الى صهرهم في بوتقة الأخوة الروحية المشعة منها الوحدة الكاملة بالشعور والمثل ، والمناهج ، والأهداف .

ولم يقف نشاطهم العرفاني عند هذا الحد ، بل أوجدوا فلسفة عقلانية توحيدية استقوها وارتشفوها من عمق القرآن وجوهر الشرع والرسالة ، تحدثوا فيها عن وحدة الأديان فقالوا : « واعلم ان دولة أهل الخير يبدأ أولها من قوم علماء ، حكماء ، أخيار فضلاء ، يجتمعون على رأي واحد ، ويتفقون على مذهب واحد ، ودين واحد ، ويعقدون بينهم عهدا وميثاقا ألا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضا ، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم ، وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم فيما يقصدون (١) » .

---

(١) رسالة اخوان الصفا ج ٤ ص ٤٢ . منشورات صادر بيروت .

وفرضوا على أتباعهم ومريديهم الذين ينهجون نهجهم في العلوم العرفانية الماورائية أن لا يمادوا علما من العلوم ، أو يهجروا كتابا من الكتب ، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب ، لأن رأي اخوان الصفاء وخلان الوفاء ومذهبهم يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها .

هدفهم من وراء ذلك زرع الافكار الحرة في العالم الاسلامي ، وتشجيع الناس على المجاهرة بها ، بغية اصلاح ما فسد من الأمور الدينية والاجتماعية ، ومن أجل القضاء على خلافة بني العباس التي يسمونها « دولة أهل الشر » التي يعشعش فيها الفساد الذي يتمسك بعنف في خناق المجتمع الاسلامي ، ليشيدوا على أنقاضها دولة « أهل الخير » أو « المدينة الفاضلة » ذات النظام المثالي المرتكز على فلسفة الاخلاق والسلوك والعبادة الحقانية (١) .

ولنستمع اليهم وهم يصفون الدولة العباسية فيقولون : « .. وقد نرى أنه قد تناهت دولة أهل

---

(١) رسالة الجامعة ج ١ ص ٥٢٣ تحقيق الدكتور مصطفى غالب من منشورات دار صادر .

الشر وظهرت قوتهم ، وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان ، وليس بعـد الزيـادة الا الانحطاط والنقصان ، ولا بد مـن كائن قريـب ، وحـادث عجيب ، فيه صلاح الدين والدنيا ... » ،

هذه بعض المنطلقات الاصلاحية الاجتماعيـة والدينية والسياسية التي جسدها جماعـة اخوان الصفاء وخلان الوفاء في رسائلهم التي بثوها بين طبقات المسلمين وغير المسلمين ، وبدون أن يشيروا الى مصنفيها خشية أن يتعرضوا لنقمة من بيدهم الصولجان والسلطة ، فقلبت مفاهيم الجماهير رأسا على عقب ، وأحدثت بينها من التغيير والتبديل والتفاعل ما لا تزال آثاره باقية الى هذا اليوم .

بالاضافة الى تأثيرها على الآداب والفلسفـة الاسلامية وحياة المجتمع ككل . والنضوج العلمي للحياة الروحية وما شع عنها من اشعاعات واشراقات كشفية ، وما ابتدعت من مناهج في التفكير والتأمل الذي نما وتطور وواكب سير الحياة التصاعدي .

ولقد أكد العلماء وكبار المفكرين أن الفلسفة ، بصورة عامة ، مديونة بأول دائرة للعلوم والمعارف ظهرت في العالم وهي رسائل (اخوان الصفاء وخلان

الوفاء) التي عبدت الطريق لفلاسفة الاسلام كالفارابي وابن سينا وابن رشد والمجريطي والكرماني والمعري وغيرهم .

كما وأن الحركات الباطنية التي ظهرت في الاسلام على أسس دينية ، لا سياسية ، تدين لهؤلاء الحكماء بخطوطها العريضة المضيئة التي نسجت حولها الأباطيل والاتهامات ، مما أدى الى تشويه تراثها الفكري في التاريخ .

ونحن لا نستغرب أن ينبري أمثال عبد الرحمن البدوي المعروف بتعصبه وتقلبه وتلاعبه الواضح بالمخطوطات فيكيل التهم جزافا ، ويختلق الأكاذيب، وينمق الفريات ، بعد أن عجز عن اظهار الحقائق العرفانية الواضحة ، بقصد تشويه المبادىء العقلانية ، عن طريق الدس الرخيص المعتمد على ما كتبه الخصوم بدافع التعصب ، والحقد الأرعن .

وهكذا نلاحظ وبعد فترة طويلة من ظهور رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء أنها قد شغلت حيزا كبيرا من تفكير العلماء والباحثين خلال حقبة طويلة من الزمن ، ولا تزال حتى هذا اليوم مثارا للجدل والتخمين والاستنتاج الذي قلما يكشف النقاب عن

الحقائق الباطنية السرية جدا ، والرموز العويصة، والاشارات الخفية ،لما أسدل حولها من سجف كثيفة أضفت عليها التعقيد والغموض الذي حير الناس وملأ الدنيا بالاستفسارات والتساؤلات ٠

مما أدى الى تضارب الآراء ، وتنوع الدراسات التي زادت الموضوع تعقيدا حتى أصبح مع مرور الزمن من الالغاز المستعصية المبهمة التي أغلقت الأبواب والمنافذ دونها ٠

وبالرغم من أن واضعي هذه الرسائل العقلانية قد أحاطوا أنفسهم بهالة من الكتمان والتقية ، وتعمدوا اخفاء أسمائهم عن عامة الناس ، زهدا في الشهرة ، وحرصا على حياتهم المهددة بالخطر في كل لحظة من قبل أصحاب السلطة ، من الحكام والامراء والخلفاء ، فقد راجت رسائلهم رواجا عظيما أنارت الدروب المظلمة لحملة الافكار الاصلاحية الحرة في العالم الاسلامي ، وشجعت الناس على المجاهرة بها علنا بدون خوف أو وجل ، وبذلك مهدت السبيل لثورة فكرية عارمة تمخضت عن تكوين الجماعات السرية في الاسلام ٠

ومن البديهي أن يوجه علماء العرب والاسلام جل اهتمامهم لدراسة هذه الجماعة منذ ظهور

رسائلهم الى عالم الوجود وحتى هذا العصر الذي نعيش فيه ، فكانوا فيهم يسألون ويتساءلون ، وهم مختلفون لم يتوصلوا الى تقديم صورة جلية يعززون فيها وجهة نظرهم ، ويقيمون البراهين المقنعة التي طالما تعطشت اليها نفوس الباحثين ، والتي تسمو على التحامل والتحابي .

فهم فيهم بين حاقد يتخبط في دياجير الحيرة والحقد متوكأ على عكاكيز الزيغ والضلال ، يكتب ما يوحيه اليه سخطه وتعصبه وتحامله ، وبين مغال يندفع بعوامل الحب والاعجاب والولاء لهم . فرسائل اخوان الصفاء وكل ما ورد فيها من علوم ومعارف ، تبدو لبعضهم الحادية ، تهدف الى بذر بذور التنازع والاختلافات ، باسم الغيرة على الدين والحفاظ عليه . بينما ينظر اليهم البعض الآخر بعين الرضى والارتياح والتعظيم والاجلال ، متمثلا بقول الشاعر :

وعين الرضى عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدي المساويا

مصطفى غالب

من هم جماعة اخوان الصفاء ؟ :

يلاحظ من خلال الدراسات القديمة والحديثة أن العلماء الذين حاولوا معرفــة جماعــة اخوان الصفــاء وخلان الوفــاء لا يزالــون يخبطــون في استنتاجاتهم خبط عشواء ، كونهم لم يتوصلوا الى معرفة الحقيقة التي تظهر بجلاء شخصيات هــذه الجماعة السرية ، التي لعبت دورا فعالا في الفكر العالمي .

ولعل أول دراسة علمية ظهرت الى عالم الوجود عن (اخوان الصفاء وخلان الوفاء) كانت في عام ١٨٣٧ ميلادية كتبها باللغة الانكليزية المستشرق « توماسون » بعنوان « تحفة اخوان الصفاء » وقد ضمنها فصلا نقله من رسائل اخوان الصفاء ، يشير

الى « تداعي الحيوانات على الانسان عنـد ملك الجن » ٠

وفي نفس العام نشر المستشرق « نوورك » في برلين موجزا وافيا حول « اخوان الصفا » باللغة العربية مع الترجمة الالمانيـة ٠ وفي عـام ١٨٧٩ ميلادية نشر في برلين المستشرق « ديتريسي » كتابه « العلوم الفلسفية عند العرب » بثمانية مجلدات ، أتى فيه على ذكر (اخوان الصفاء وخلان الوفاء) معتمدا على ما ورد في رسائلهم من أبحاث فلسفية عرفانية ٠ ولم يقف نشاط هذا المستشرق عند هذا الحد بل نراه في عام ١٨٨٦ ميلادية ينشر في برلين كتابا آخر بعنوان (خلاصة الوفاء في اختصـار رسائل اخوان الصفاء) ٠

وفي عام ١٨٨٨ ميلادية طلع علينا المستشرق الالماني « غولدزيهر » بدراسة موجزة تعرض فيها لجماعة اخوان الصفـاء وخلان الوفاء نشرهـا في (هال) بألمانيا ٠ وكتب حولهم تعريفا علميا عام ١٨٩٣ ميلادية المستشرق « لان بول » كما ناقش موضوعهم المستشرق « باربيـت دمينارد » سنـة ١٨٩١ ميلادية ؛

وفي سنة ١٩٠٣ ميلادية ترجم المستشرق « ويمر » بعض الرسائل ونشرها بمقدمة عالج فيها فلسفة (اخوان الصفاء وخلان الوفاء) بأسلوب علمي شيق . وفي نفس العام ظهرت عدة أبحاث حول الموضوع نفسه في لندن كتبها كل من « ديور » و « ماكدونالد » .

وفي عام ١٩١٥ ميلادية تناولهم في البحث والدراسة المستشرق « كازانوفا » . كما تعرض لذكرهم المستشرق الفرنسي « لويس ماسنيون » عام ١٩٢٩ في كتابه « الصوفية في الاسلام وفلسفة الغزالي » ، ثم أعقبها بدراسة تاريخية مستقلة ، أتى فيها على ذكر تاريخ تصنيف الرسائل .

وفي العام نفسه ظهرت دراستان حول الموضوع كتب احداهما المستشرق الروسي « ايفانوف » والثانية المستشرق « تريتون » . ومن المستشرقين الذين عالجوا موضوع (اخوان الصفاء وخلان الوفاء) بتجرد ونزاهة علمية موفقة ، ولكنهم مع الأسف الشديد لم يتوصلوا الى معرفة شخصيات هذه الجماعة السرية ، هم : « برنارد لويس ، ستيرن ، كويارد ، دساسي ، نيكلسون ، فان ايس ، شتروطمن ، وغيرهم » .

ولا يخفى بأن علماء العرب والاسلام قد وجهوا بعض الاهتمام لهذه الجماعة منذ وجودها في البصرة وحتى عصرنا الذي نعيش فيه فكانوا فيهم على اختلاف شديد لذلك صرفنا النظر عن ذكر من تناولوهم بالبحث من الكتاب والباحثين والمؤرخين القدامى كونهم في رأينا لم يتحرروا من التعصب والتحامل والتلفيق ويستخلصوا الحقائق من الأباطيل المزخرفة ، سالكين في أبحاثهم سبيل الانصاف ، باخلاص ذوي النيات الحسنة ، والطوايا السليمة ، والغايات القويمة ، والآمال المستقيمة •

ولكن التعصب المذهبي والعرقي الذي يرقد في نفوسهم ويبيض ويفرخ ، جعلهم يتطرون الى هذه الجماعة ، التي أعطت من روحها ووجدانها أضخم موسوعة علمية في التاريخ ، بمنظار الحقد ، بدون أن يراعوا للامانة العلمية والتجرد والنزاهة أية حرمة •

وبالرغم من كل هذا ، لا يسعنا الا أن ننوه بالجهود المفيدة الطيبة التي بذلها في هذا المجال ، كل من السادة مع حفظ الألقاب : عمر الدسوقي ، حسين همداني ، جبور عبد النور ، عمر فروخ ،

عبد الحميد الدجيلي ، عادل العوا ، عبد اللطيف الطيباوي ، عارف تامر ، محمد كامل حسين ، وغيرهم • فلهؤلاء العلماء الباحثين في الجلائل والدقائق ، منا التقدير والاعجاب ، لحرصهم الشديد على استخلاص وجه الحقيقة الناصع ، الذي حاول طمسه واخفاء معالمه ، التعصب المقيت ، الذي يعتبر من أخطر الأوبئة التي اجتاحت البشرية منذ وجودها •

ونحن لا نشك مطلقا بأن الاقدام على معالجة المواضيع الباطنية السرية ، التي تمور بالرموز والاشارات والمصطلحات ، من الامور المعقدة المستعصية التي يفرض علينا الواجب العلمي بحثها ومعالجتها بتجرد ونزاهة ، لايراد الحقائق الخالية من الأدران والشوائب ، في ضوء الأدلة الدامغة ، والحجج المنطقية المقنعة •

أما أن نحكم في مثل هذه المواضيع الخطيرة ، استنادا على ما قاله الخصوم فيهم ، بدون أن نكلف أنفسنا ولو لالقاء نظرة عابرة على آثارهم وانتاجهم ، علنا نتبين موضع الخطل والتجني ، فهذا غبن ليس بعده غبن ، ومخالفة صريحة للاصول العلمية التي

أقرها الضمير والوجدان الاخلاقي ٠

جميع هذه الاسباب أهابت بنا لنؤكد جازمين بأن (اخوان الصفاء وخلان الوفاء) هم أول من وضع بذور الفلسفة الاسماعيلية وركز دعائمها ، وهذا ما سنتحدث عنه بايضاح مبينين صحة انتساب هذه الجماعة الى الاسماعيلية ، باعتبار ان العلماء المتقدمين والمتأخرين كما توهمنا وخاصة الذين أتينا على ذكرهم لم يأتوا برأي قاطع ، ولم يذكروا من ألف الرسائل ؟ وأين ؟ ومتى ؟ وقد دارت جميع بحوثهم كما يقول عارف تامر (١) في فلك (أبي حيان التوحيدي) المشهور الذي لا يشفي عليلا ولا يفي بالمطلوب ، ولا يصح أن يكون مصدرا يوصل الى الاهداف التي ينهد اليها العلماء ، بالاضافة الى كل ذلك أن كل واحد منهم ذهب مذهبا يختلف عن الآخرين ، وظهروا بمباحثهم بأفكار غريبة متباينة متضادة هي أقرب للخيال من الواقع ٠ ولننتقل الى ما ورد في المصادر التاريخية حول جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء ٠

---

(١) عارف تامر : حقيقة اخوان الصفاء وخلان الوفاء صفحة (٩-١٠)٠

يقول الدكتور عمر فروخ ما يلي (١) : « سئل أبو حيان التوحيدي سنة ٤١٤ هـ ـ ١٠٢٤م عن اخوان الصفا وعن زيد بن رفاعة فقال (المقابسات ٤٥) : « لا ينسب الى شيء ولا يعرف له حال اذ تكلم في كل شيء ... وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا ، وصادق بها جماعة (محبين) لأصناف العلم وأنواع الصناعة ، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البُستي ـ ويعرف بالمقدسي ـ وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجاني ، والعوفي وغيرهم ، وصحبهم وخدمهم . وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله . وذلك أنهم قالوا : ان الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ... وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها وسموها (رسائل اخوان

---

(١) الدكتور عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي صفحة ٣٩٢ .

الصفا) ، وكتموا فيها أسماءهم وبثوها في الوراقين ووهبوها للناس ... » .

هذا هو النص التاريخي الذي اعتمده أكثر المؤرخين العرب ، والمنسوب الى التوحيدي ، وهو بمعرفتنا واعتقادنا غير كاف ، ولا يستنتج منه أي شيء حول جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، كونه مبني بدوره على التخمين ، والاتهامات الباطلة ، والتسميات الغير واضحة بالنسبة لمن ساهموا بتصنيف الرسائل .

غير ان بعض العلماء والباحثين توصلوا الى أول الطريق في دراساتهم لرسائل جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء فأظهروا بعض الحقائق التي تبين معالم هذه الجماعة ، فقال المستشرق كازانوفا : « أؤكد أن آراء الاسماعيلية توجد كلها في رسائل اخوان الصفاء » .

وقال العالم ديفروميري : « ان سنان بن سليمان الملقب براشد الدين تناول علوم الفلسفة وأطال نظره في كتب الجدل والخلاف وأكب على مطالعة رسائل اخوان الصفاء» . وقال المستشرق ماكدونالد: « لقد تلقى الاسماعيلية تعاليم اخوان الصفاء

وزادوا فيها في حصونهم الجبلية ومقر هواهم » .
وأضاف في مكان آخر من كتابه : « يجب أن نكون على ذكر أن الاسماعيليين لم يكونوا عصابات من اللصوص تنشر الرعب بأساليبها الشنيعة ولكن كلا الفرعين الشرقي والغربي قد عكف على العلم وربما وجد في حصونهم الجبلية أشد أنواع الفناء في طلب العلم الصحيح وحينما استولى المغول على قلعة « آلموت » وجدوها غنية برسائل اخوان الصفاء » .

ويرى عبد اللطيف الطيباوي وهو ممن كتب حول جماعة اخوان الصفاء ما يلي : « لا أراني مصيبا في القول بأن فلسفة الاسماعيلية جميعها مبثوثة في رسائل اخوان الصفاء ، فالقول بالامام المستور الذي سوف يظهر ليعيد السلام الى العالم ، هذا القول عندهم يمثل امتزاج النظريات الأفلاطونية بالاعتقاد بالمجيء الثاني للمسيح ، وعليه فمن الجور في الحكم أن يُرمى الاسماعيليون بالكفر والانحطاط الاخلاقي كما جاء في فتوى ابن تيمية » .

ويعتقد عمر الدسوقي ان الشيعة الاسماعيلية

يعتقدون أن مؤلف رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء أحد الأئمة من آل البيت ، وان هذا الامام هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، واعتقادهم هذا يدل على ما لرسائل اخوان الصفاء عندهم من منزلة رفيعة ، وانها تحوي تعاليم الطائفة ٠

ويرى الدكتور حسين همداني ان الاسماعيلية يرون القرآن الكريم كتاب العامة ، ورسائل اخوان الصفاء كتاب الأئمة والطبقة العارفة الخاصة ٠ ويقول أحمد القادياني : ولما خشي الامام أحمد بن عبد الله أن يزيغ المسلمون عن الشريعة المحمدية الى علوم الفلاسفة ألف رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء وجمع فيها من العلوم والحكمة والمعارف الالهية والفلسفية والشرعية ٠

ويقول القفطي في كتابه تاريخ الحكماء : « ولما كتم مصنفوها أي (الرسائل) أسمائهم اختلف الناس في الذي وضعها فكل قوم قالوا قولا بطريق الحدس والتخمين فقوم قالوا : هي من كلام بعض الأئمة من نسل علي بن أبي طالب واختلفوا في اسم الامام الواضع اختلافا لا يثبت له حقيقة ٠ وقال

ماكدونالد في مقال له : يظهر ان أبا العلاء المعري قد اتصل في وقت ما بجماعة مثل اخوان الصفاء ان لم يكونوا أنفسهم ·

هذه بعض الاقوال التي حاول أصحابها التأكيد بأن جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء هم من الاسماعيلية ، أما دعاة الاسماعيلية الذين كتبوا حول هذا الموضوع فلا بد من الاستماع الى أقوالهم، علهم يكشفون لنا عن ماهية هذه الجماعة ، لأن صاحب البيت أدرى بالذي هو فيه : يقول الداعي ادريس عماد الدين (١) : وقام الامام التقي أحمد ابن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بعد أبيه بأمر الامامة وبث دعاته في الآفاق من (سلمية) واتصل به الدعاة ودعوا اليه وهم مخفون لمقامه وكاتمون لاسمه ·· وكان المأمون حين احتال على (علي بن موسى الرضي بن جعفر) ظن أن أمر الله قد انقطع وحجته عن الارض قد ارتفعت ··· فحين ظن المأمون العباسي ذلك الظن ووهم ذلك الوهم سعى في تبديل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) كتاب عيون الاخبار وفنون الاثار السبع الرابع تحقيق مصطفى غالب منشورات دار الاندلس بيروت ·

وتغييرها . وأن يرد الناس الى الفلسفة وعلم اليونانيين ... وخشي الامام عليه السلام أن يميل الناس الى ما زخرف المأمون عن شريعة جده فالف رسائل اخوان الصفاء . وهذه فهرست الرسائل التي ألفها (الامام) جمع فيها أنواع العلوم الفلسفية والهندسية وجمل « الجامعة هي منها الغاية التي يتبين منها المراد ويتضح المعنى للمرتاد وقصرها على خلصاء شيعته وخيرة خاصته ... وانما ألف الامام أحمد تلك الرسائل لتقوم الحجة على المأمون وأتباعه حين انحرفوا عن علم النبوة ، ثم ان الامام أمر أن تبث تلك الرسائل في المساجد ... فحين وقع عليها الناس رفعت الى المأمون فعلم أنه لم يضع شيئا وان امارته من قطع حبل الامامة لا يكون (١) » .

ويقول الداعي الاسماعيلي شرف الدين (٢) : « حتى هم المتسمى بالمأمون أن يرد الأمة الى دين القول بالنجوم وقال ما جاء محمد صلى الله عليه

(١) عيون الاخبار وفنون الاثار من منشورات دار الاندلس صفحة (٣٦٢ - ٣٦٨) .

(٢) شرف الدين جعفر بن محمد بن حمزة في الرسالة الموقظة مخطوطة في مكتبة مصطفى غالب الخاصة .

وسلم الا بناموس ملك به الناس وحقيقة وأساس حتى أظهر ولي الله وابن رسول الله (رسائل اخوان الصفاء) وفيها ما تحير فيه جميع العالم من العلوم في كل فن والاستشهاد على شريعة الرسول ، وهو عليه السلام في كهف التقية مستتر ودعاته الباقون متفرقون لتلك الرسائل في كل شهر وقطر ... فرجع اللعين عما هم به من ذلك » .

وجاء في كتاب قلائد الجواهر (١) : « ان العلامة الفهامة أحمد بن عبد الله هو مصنف اثنين وخمسين رسالة موسومة باخوان الصفاء وخلان الوفاء » . ويقول الداعي اليمني المطلق ابراهيم بن الحسين الحامدي المتوفي سنة ٥٥٧ هجرية في كتابه « كنز الولد (٢) » عن ذكر الرسائل ورسالة الجامعة ما يلي : « قال الشخص الفاضل صاحب الرسائل ... » ثم ينقل عبارات كثيرة من الرسالة الجامعة ورسائل اخوان الصفاء يدعم فيها أقواله .

ويقول القاضي النعمان بن حيون المغربي

---

(١) قلائد الجواهر باللغة الفارسية صفحة ٢٧ .

(٢) كتاب كنز الولد من منشورات الالماني للدراسات الشرقية في لبنان تحقيق الدكتور مصطفى غالب .

التميمي في رسالته المذهبة : « وسألت عن معنى قول الصادق صلوات الله عليه : تمام أمرنا بسبعة ثلاثة منا وأربعة من غيرنا ··· فالثلاثة هو وولده وولد ولده والاربعة الذين هم مـن غيرنا هـم : الأحدث ، والمختلس ، وأخا المختلس ، والقداح . وهم المتسمون عليهم السلام ، وهؤلاء السبعة هم الذين مهدوا للدولة الفاطمية وركزوا دعائمهـا وعملوا لأجل بناءها وهم بالتحقيق الأئمة الثلاث المستورون : عبـد الله ، وأحمـد ، والحسين . والحُـرُم الاربعة مؤلفوا الرسائل وهم : عبد الله ابن حمدان ، وعبد الله بن سعد ، وعبد الله بن ميمون ، وعبد الله بن مبارك .

وتذكر المصادر الفاطمية ان الامام عبد الله بن محمد عندما جعل عدد رسائل اخوان الصفاء اثنين وخمسين رسالة وضعها لحكمة وطبقها على عـدد حروف اسمه بحساب (الجمل) وهذا النوع من الحساب أول مـن استعملـه في العهـود الماضيـة (الاسماعيليون) ، واليك المثال :

عبدالله بن محمد = عبد الله بن محمد
٧٢٤١٣٢٣٠ ٢٥ ٤٨٤٤ = ٢٥

ويقول الداعي الاسماعيلي أبو المعالي (١) :

« فلما انتقل الامام محمــد بن اسماعيل الى دار البقاء تسلمها ولده المستور أحمد الوفي وهو أول من ستر نفسه عن الاضداد من أهل عصره المخالفين، لأن زمانه كان زمان فترة ومحنة ، وكان المتغلبون من ولد بني العباس يطلبون من يشار اليهم منهم حسدا و بغضا لأولياء الله تعالى فأوجب ذلك الاستتار المعروف للأئمة وكنيت الدعاة بأسمائهم تقية عليهم مما هم فيه ويليق بهم وتاهت فيهم أولو الضلال حتى قالوا ان الامام من ولد محمد بن اسماعيل هو (عبد الله بن ميمون) أو (عبد الله بن مبارك) أو (عبد الله بن حمدان) وان هؤلاء الاربعة قد اجتمعوا مع غيرهم وصنفوا رسائل طويلة في شتى العلوم والفنون عددها اثنتان وخمسون رسالة ٠

هذه الاقوال التي أوردناها لبعض من كتبوا حول اخوان الصفاء تؤكد لنا بأن هذه الجماعة ينتسبون الى الاسماعيلية ، وسنحاول في الصفحات التاليــة مقارنة أفكارهم مع آراء بعض الحكماء الاسماعيلية لنتبين الى أي مدى تكون الموافقة والمطابقة ٠

---

(١) رسالة الاصول والاحكام للداعي ابو المعالي حاتم بن عمران بن زهرة مخطوطة ٠

آثار اخوان الصفاء وخلان الوفاء :

يستدل من المصادر العلمية والتاريخيــة ان جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفــاء لم يصنفوا سوى رسائلهم المعروفة ورسالة الجامعة فقط ،وبقية ما صنفوه فقد أو لا يدري به أحد • ولكننا وجدنا مؤخرا ونحن نحقق الرسالة الجامعة ان اخــوان الصفاء وخلان الوفاء لهم كتب أخرى أشاروا اليها في الرسالة الجامعة التي صنفها امامهم المستور أحمد ابن عبد الله وهي (١) :

١ ـ المدارس الأربع •
٢ ـ الكتب السبعة •
٣ ـ الجفران •
٤ ـ الرسائل الخمس والعشرون •
٥ ـ الرسائل الاثنتان والخمسون •
٦ ـ الرسالة الجامعة •

ولا يوجد أي ذكر لما يسمى جامعة الجامعة ، في أي مصدر من مصادر الدعوة الاسماعيلية ، بل كل

(١) راجع الرسالة الجامعة تحقيق مصطفى غالب من منشورات دار صادر صفحة (٥٣٩) •

ما هنالك أننا نملك عدة نسخ من مخطوطة اسماعيلية تسمى (زبد رسائل اخوان الصفاء) وهي عبارة عن ملخص لما ورد في بعض الرسائل الماورائية لجماعة اخوان الصفاء كتبها بعض المشايخ الاسماعيلية في سورية ، وقد نقلوها عن الرسائل الاثنتان والخمسون ٠ أما رسالة الجامعة التي حققها الدكتور صليبا ونسبها للمجريطي ظلما وعدوانا فهي نفس الرسالة الجامعة التي حققناها ونشرناها في بيروت مع بعض الاختلاف الكبير في النصوص ٠ ولا أدري كيف تجرأ الدكتور صليبا على نسبة هذه الرسالة الى المجريطي وهو يعلم تمام العلم بأنه لم يكتبها ولم يؤلفها ، وكل ما هنالك أنه نقلها معه من المشرق الى المغرب فنسبها اليه ٠

مبدع الهويات عند اخوان الصفاء :

يعتقد جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء أنه من المفروض أن يكون المبدع أو الموجد أقدم من المُدَع والموجَد لأنه علة ابداعه ووجوده منذ البدء ، باعتبار كل مصنوع هو حادث بالنسبة لأزلية الصانع ٠

والناس على اختلاف أهوائهم وتفكيرهم وتأملهم ،

ميالون بالفطرة الى الاقرار بوجود كائن عظيم ، عاقل حكيم أرفع من جميع الموجودات لأنه علة ايجادها وأصل خلقها وابداعها وتنظيمهاوترتيبها في حركة دائمة ، لحفظها وخيرها واستمرارها الى ما لا نهاية ، وهو المبدع أو الخالق ، أو الله سبحانه وتعالى .

وهذا المبدع أو الصانع يتمتع بقوة جبارة عظيمة مهما اختلفت الزوايا التي ينظر منها الانسان الى هذه القوة فستظل القوة الاصيلة الثابتة ، والحافظة العوالم في حركة مستمرة ، ورباط وثيق ، كارتباط المعلول بالعلة ، والمخلوق بالخالق ، والصنعة بالصانع ، لأنه مبدأ ومرجع كل شيء ، ذو كمال متناه باعتباره الكائن الموجود من ذاته ، أي الموجود الذي يوجد بمجرد ماهيته ، فلا يحتاج الى علة خارجة تعطيه الوجود ، لكون ما لا يوجد من ذاته ، يحتاج في وجوده الى علة فاعلة تحدثه ، ووجود العلل الفاعلة المترتبة بالذات دليل بيّن على وجود علة أولى لها يتعلق بها وجودها ، وهي غير معلولة .

وهذا الموجود الذي أقرت به معظم الأمم

والشعوب ، في كل زمان ومكان ، ووقف أمام قوته وقدرته العقل البشري موقف الدهشة والعجز والتواضع ، باعتباره العلة الأولى والغاية القصوى لكل الموجودات الحادثة والغير موجودة من ذاتها ، أزلي غير متغير في وجوده وقوته ، لا مثيل له ولا شريك ، لا بدء ولا نهاية له ، ندعوه الله ونتوسل اليه في صلواتنا وعباداتنا الظاهرة والباطنة ٠

والله سبحانه وتعالى هو علة العلل ، والعلة الأولى اللامعلومة التي يتعذر ادراك ماهيتها لأننا عاجزين عن ادراك وجودها ، لأن وجودها هو ذاتها ، والذات والوجود واحد في الله ٠

والعقل البشري مهما بلغ من السمو والارتقاء يقف عاجزا عن ادراك الله بنوره الا ادراكا ناقصا، وهذا الادراك لا يكون الا من جهة آثاره ٠ ولما كانت هذه الآثار غير كاملة لأنها متناهية والله غير متناه ، فقد صح العجز عن ادراك الماهية الالهية بنور العقل البشري ٠

والله تعالى الموجود بذاته ، الذي يوجد عنه كل ما في الامكان وجوده على أحسن وجوه النظام

والكمال ، منزه عن جميع الصفات التي تتصف بها موجوداته ، ومبدعاته ، ومكوناته ، لا مثال له ، مبدأ كل موجود لاستناد جميع الموجودات اليه ، ولصدورها عنه ٠

من هذه المنطلقات العرفانية الماورائية تكون المحور الاساسي الذي تدور عليه كافة الشرائع والأديان في ايمانها بوجود اله خالق مبدع نظم الطبيعة وسيرها بقدرته الخارقة ، وقوته العظيمة ، أمر فكان الليل والنهار وتعاقب الفصول ، وكانت السماء بكواكبها ، والكواكب بمنازلها وبروجها وأفلاكها ، والرياح بجريانها ، والارض وما عليها، فسبحت له كافة الموجودات العلوية ، والمخلوقات الجسمانية ، والمبدعات الروحانية ، ناطقة بعظمته، ومنبئة عن باهر قدرته ، فذلت العقول خاضعة لنور وحدته ٠

ولما كانت فلسفة جماعة « اخوان الصفاء وخلان الوفاء » تنطلق من اثبات الخالق المبدع المصور ولزوم عبادته ، وتبحث عن الله تعالى وكمالاته ،

---

(١) رسائل اخوان الصفاء ج ٣ ص ١٧٩ منشورات صادر بيروت ٠

وتدعو الى الايمان بوجوده ، وتهدف الى توحيده ، وتجريده ، وتنزيهه ، رأينا أن نقدم بعض آراء هذه الجماعة في المبدع ، لنلاحظ الى أي حد تنسجم مع الفلسفة العرفانية المعروفة في الحياة ٠

يرى جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء أن الباري تعالى هو مبدع علة الموجودات ، وخالق المخلوقات ومخترعها ، وهو واحد بالحقيقة من جميع الوجوه : « اعلم ، أيدك الله وايانا بروح منه ، أن الوجود متقدم على البقاء ، والبقاء متقدم على التمام ، والتمام متقدم على الكمال ، لأن كل كامل تام ، وكل تام باق ، وكل باق موجود ٠

ولكن ليس كل موجود باقيا ، ولا باق تاما ، ولا كل تام كاملا ، وذلك أن الباري ، جليت أسماؤه ، الذي هو علة الموجودات ومبدعها ومبقيها ومتممها ومكملها ، أول فيض فاض منه الوجود ، ثم البقاء ، ثم التمام ، ثم الكمال » ٠

وبالاضافة الى ايمانهم بأن الله تعالى واحد بالحقيقة يؤكدون بأنه علة الموجودات ومبدعها ومبقيها ومتمها ومكملها ، لأن أول فيض فاض منه

الوجود ، ثم البقاء ، ثم التمام ، ثم الكمال ، وذلك ليدلوا على أن البقاء أفضل وأسمى مرتبة من التمام والكمال ، معتمدين على نظريتهم في خواص العدد التي تثبت الفرق بين التمام والكمال • ويعتبرون بأن علم العدد هو فيض العقل على النفس ، وذلك أثناء عملية الابداع الاول • ولنستمع اليهم ماذا يقولون في الرسالة الجامعة (١):

« الحمد لله مبدع الوجود ، الذي لم يكن من قبله موجود يقبل منه فيض الجود ، فسبحان من موجوده قابل لجوده مقر بوجوده معترف بتوحيده • فهو موجد الموجود ، ومفيض الجود على الموجود ، مبدأ كل موجود يقبل فيض الجود ، مرتب الجد الذي هو مرتب الحدود ، وكل حد ينتهي الى حد له محدود وأجل معدود (وما منا الا له مقام معلوم • وانا لنحن الصافون • وانا لنحن المسبحون)•والحمد لله جاعل أول ما أبدعه عرشه المحيط ، وثانيه كرسيه الذي وسع السموات والارض ، فعرشه هو القلم الجاري بأمره ، فخط في اللوح الكريم سطور المشيئة ، وأحرف الارادة ، وقول الحق ، ووعد

(١) الرسالة الجامعية : تحقيق مصطفى غالب منشورات صادر صفحة ٣٥ •

الصدق ، وكلمات التمام ، والاسماء العظام » ٠

وحول خلق الصورة الانسانية باعتبارها خليفة الله في أرضه يقولون (١) : « اعلم أيها الأخ أيدك الله وايانا بروح منه ان الباري عز اسمه لما خلق هذا العالم على هذه الهيئة الشريفة والبنية العجيبة، وجعل صورة الانسان خليفته في أرضه لتدبير خلقه في العالم السفلي ليصير عند نقلته زينة للعالم العلوي ، وجعل نفسه علامة بالقوة فعالة بالطبع ، ولم يخله من الفوائد العقلية والتأييدات الالهية ، ليتوصل بذلك الى معرفة جميع ما في هذا العالم ٠ وكان من الفضل الذي جاد به عليه والاحسان الذي أسداه اليه ما أفاضه العقل على النفس أولا من الفكر في الاقرار بالمبدع الحق الاول ، ومعرفة العقل الذي هو أصل لها وأب ، وانه ليس هو المستحق للعبادة المحضة وان له خالقا ومبدعا ،وكان هذا من العقل اقرارا بخالقه ومبدعه ، وتعريفا لمن هو دونه أنه لا يعرف الا هو ، ان ليس هو الا هو ، فعند ذلك شهد الله أنه لا اله الا هو » ٠

---

(١) المصدر نفسه صفحة (٣٥ - ٣٦) ٠

ويذهب جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء الى أن الله تعالى تام الوجود ، كامل الفضائل ، عالما بالكائنات قبل كونها ، قادرا على ايجادها متى شاء ، وهو أول الموجودات ، كما ان الواحد هو قبل كل الاعداد . وكما ان الواحد هو نشوء الاعداد ، كذلك الباري موجد الموجودات (١) .

وفي رأي اخوان الصفاء ان الباري هو المعشوق الأول ، والفلك انما يدور شوقا اليه ، ومحبة للبقاء والدوام المديد على أتم الحالات ، وأكمل الغايات ، وأفضل النهايات . وفي نظرهم ان أجل المعارف ، وأشرف العلوم هي معرفة الله وصفاته اللائقة به . وان العلماء قد تكلموا في ماهية ذاته ، وأكثروا القيل والقال في حقيقته وصفاته ، وتاه أكثرهم في المجاج عن المنهاج والفلج ، والعلة في ذلك هو من أجل أن هذا المطلب من أبعد المرامي اشارة ، وهو أقرب المذاهب وجدانا (٢) .

ويعتقد جماعة اخوان الصفاء ان الواحد الموصوف بالجلالة والعظمة المشار اليه بالوجود ،

---

(١) رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ج ٣ ص ١٩٦ .
(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٥١٢ .

وأنه مبدأ كل موجود يقبل فيض الجود ، واليه ينتهي الحدود ، فهو العقل الاول ، ومبدعه يجل عن صفة الواصفين ونعت الناعتين • وانما يقال هو لا اله الا هو ايمانا وتسليما •

فهذا القول اثبات التوحيد • ولذلك صار الأصل المعتمد عليه في كل شريعة ودين • وذلك أن العقل نفى عن ذاته الالوهية وأثبتها لمبدعه • فقال : لا اله الا هو ، فوحد مبدعه ، فهو عقل بمعنى اثبات الوحدة المحضة وذلك لاتصال التأييد به متواترا لا يفتر ولا ينقطع بل متصلا دائما أبدا (١) •

وحتى لا يفوت من فاته وجدانه سبحانه وتعالى من أجل خفاء ذاته ودقة صفاته ، وكتمانها ، ولكن من شدة ظهوره وجلاله ونوره ، وانما ذهب على من ذهب معرفة ذاته وحقيقة صفاته ، من أجل أنهم طلبوه كطلبهم سائر الاشياء الجزئية المحسوسة، وبحثوا عنه كبحثهم عن سائر الموجودات الكليات المبدعات المخترعات المصنوعات الكائنات ، من

---

(١) رسالة الجامعة : تحقيق مصطفى غالب ص ٣٨ •

الجواهر والاعراض والصفات الموصوفات ،المحتوية عليها الاماكن والازمان والاكوان والاشخاص والانواع والاجناس (١) .

وذلك أن كل واحد من هذه الموجودات يطلب فيه ويبحث عنه بتسعة مباحث هي :

هل هو ؟ وما هو ؟ وكم هو ؟ وكيف هو وأي هو ؟ وأين هو ؟ ومتى هو ؟ ولم هو ومن هو . ثم اعلم ان مبدع الهويات ، وممهي الماهيات ، وموجد الكميات ، ومكيف الكيفيات ، ومميز الأينيات ، ومرتب الأنينات ، وعلة اللميات لا يقال له : ما هو ؟ ولا يسأل عنه كيف هو ؟ وكم هو ؟ وأي هو ؟ ومتى هو ؟ ولم هو ؟ وانما يجوز ويسوغ فيه وعنه ، من هذه المباحث والسؤالات ، اثنان حسب وهما : هل هو ؟ ومن هو ؟ كما يقال : هو الذي فعل كيت وكيت ، وهو الذي وضع كيت وكيت .

ومن أجل هذا ، أجاب موسى عليه السلام فرعون ، اذ سأله : ما رب العالمين ؟ فلم يجبه موسى

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ٣ ص ٥١٣ .

عن جواب (ما) بل أجاب عن جواب (من) الذي يليق به وبربوبيته ، فقال : « رب السموات والارض وما بينهما » . فلم يرض فرعون الجواب، فقال لمن حوله من الناس المتكلمين : ألا تستمعون ؟ أساله ما هو ؟ ويجيبني من هو ؟

وكذا سال مشركو قريش ومجادلوهم النبي ، عليه السلام ، فقالوا : نعبد أصنامنا وآلهتنا ،ونحن نراها ونشاهدها ونعرفها ، فأخبرنا عن الهك الذي تعبده ما هو ؟ . فأنزل الله تعالى قوله : « قل هو الله أحد » . فقالوا لا يفهم ولا يعرف أيريدون ماهية ذاته ، أجوهر هو أم عرض ؟ أنور أم ظلمة ؟ أجسم هو أم روح ؟ أداخل هو أم خارج ؟ أقائم هو أم قاعد ؟ أفارغ هو أم مشغول ؟ وما شاكل هذه المباحث والمطالب التي لا تليق بربوبيته ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

هذه الأمور الماورائية العقلانية جعلت اخوان الصفاء وخلان الوفاء يتعرضون للخلاف حول الذات والصفات فيقولون : « ثم اعلم أن مسألة الخلاف للذات والصفات هي أيضا من احدى المسائل الخلافية بين العلماء في الآراء والمذاهب ، وذلك أن كثرة

الظنون والتخيلات العارضة للافهام ، اذا تفكرت النفوس في ماهية الله ، وكيفية صفاته اللائقة ، فلا تهتدي الظنون ولا تقر الافهام عن الجولان ، ولا تسكن النفوس اليه ، ولا تطمئن القلوب له ، حتى يعتقد الانسان رأيا من الآراء ، وتسكن نفسه اليه ، ويطمئن قلبه به ٠

فمن الناس من يرى ويعتقد أن الله تعالى شخص من الاشخاص الفاضلة ، ذو صفات كثيرة ممدوحة وأفعال كثيرة متغايرة ، لا يشبه أحدا من خلقه ، ولا يماثله سواه من بريته ، وهو منفرد من جميع خلقه في مكان دون مكان ٠ وهذا رأي الجمهور من العامة وكثير من الخواص ٠ ومنهم من يرى ويعتقد أنه في السماء فوق رؤوس الخلائق جميعا٠ ومنهم من يرى أنه فوق العرش في السموات ، وهو مطلع على أهل السموات والارض ، وينظر اليهم ، ويسمع كلامهم ، ويعلم ما في ضمائرهم ، لا يخفى عليه خافية من أمرهم (١) ٠

واعلم ان هذا الرأي والاعتقاد جيد للعامة من

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ﺟ ٣ ص ٥١٤ ٠

النساء والصبيان والجهال ، ومن لا يعلم شيئا من العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية والالهيــة ، لأنهم اذا اعتقدوا فيه هذا الرأي تيقنوا عند ذلك وجوده ، وتحققوا وعلموا وصاياه التي جاءت بها الأنبياء ، عليهم السلام ، من الاوامر والنواهي ، وعلموا علمها وعملوا بها خوفا ورجاء من الوعد والوعيد ، وتجنبوا الزور والشرور ، وعملوا الخير والمعروف ، وكان في ذلك صلاح لهم ولمن يعاملهم ويباشرهم من الخاص والعام ، وليس يضر الله شيئا مما اعتقدوه .

ومن الناس طائفة أخرى فوق هؤلاء في العلوم والمعارف ترى بأن هذا الرأي باطل ، ولا ينبغي أن يعتقدوا في الله تعالى أنه شخص يحويه مكان ، بل هو صورة روحانية سارية في جميع الموجودات ، حيث ما كان لا يحويه مكان ولا زمان ما ولا يناله حس ولا تغيير ولا حدثان ، وهو لا يخفى عليه من أمر خلقه ذرة في الأرضين والسموات ، يعلمهـا ويراها ويشاهدها في حال وجودها ، وكان يعلمها قبل كونها وبعد فنائها .

ومن الناس طائفة أخرى فوق هؤلاء في العلوم

والمعارف والعقل ترى وتعتقد أنه ليس بذي صورة، لأن الصورة لا تقوم الا في الهيولى ، بل ترى أنه نور بسيط من الانوار الروحانية لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ·

ومن الناس ممن فوق هؤلاء في العلوم والمعارف والنظر والمشاهد يرى ويعتقد أنه ليس بشخص ولا صورة بل هوية وحدانية ، ذو قوة واحدة وأفعال كثيرة وصنائع عجيبة ، لا يعلم أحد من خلقه ما هو ، وأين هو ، وكيف هو ، وهو الفائض منه وجود الموجودات ، وهو المظهر صور الكائنات في الهيولى ، المبدع جميع الكيفيات بلا زمان ولا مكان، بل قال : كن فكان ، وهو موجود في كل شيء من غير المخالطة ، ومع كل شيء من غير الممازجة ، كوجود الواحد في كل عدد (١) ·

ويحظر اخوان الصفاء في نهاية المطاف على الناس أن يتكلموا في ذات الله سبحانه وتعالى ، ولا في صفاته بالحزر والتخمين ، بل يجب أن لا يجادلوا فيه الا بعد تصفية النفس ، حتى لا يؤدي ذلك الى

---

(١) رسائل اخوان الصفاء جـ ٣ ص ٥١٦ ·

الشكوك والحيرة والضلال ، معتمدين في هذا الرأي على قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ثم يصرون على أن الباري لا يوصف بصفات الروحانيين من حيث هم محدثون فاعلون ومنفعلون ، ولا بصفة الجسمانيين المدركين بالحواس ، وانما صفته من حيث أفهامنا أنه قديم أزلي ، معلل العلل ، فاعل غير منفعل ، موجد مبدع مجوهر يبدي ما يشاء ويفعل ما يريد ، كل يوم في شأن لا يشغله شأن عن شأن .

من هذه الأسس العرفانية التوحيدية صاغ اخوان الصفاء وخلان الوفاء فلسفتهم الالهية ، ودعوا الناس الى توحيد الله تعالى وتنزيهه وتجريده ، من خلال منطلقاتها العلمية المنبثقة من صميم الكتب السماوية المنزلة ، فكانت تعاليمهم المدماك الذي شيد عليه مبدأ التأويل الباطني والتصوف في الاسلام (١) .

ومن الواضح ان الصور التوحيدية التي رسمها

---

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٠٩ و ٢٠٩ .

جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء تنفي كل الفريات والاتهامات والاساطير التي نسجت وصنفت حول مسلكهم التوحيدي ، فهم كما نلاحظ ونلمس لا يختلفون عمن حلقوا خالدين في آفاق العرفان الماورائي وجواهره السرمدية • باعتبارهم أول من حمل لواء فلسفة التوحيد في الاسلام وخاضوا على ضوءه غمار أكبر صراع عقلاني عرفه الاسلام في تاريخه القديم والحديث •

ولا غرو فقد أثبتوا مبدع الهويات الذي تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ، فلا يشبههم بوجه من الوجوه ، ولا يشبهونه بشيء من الأشياء : لأنه مُبدع مخترع خالق مكون قادر عليم حي موجود مبدع قديم •

الابداع والفيض عند اخوان الصفاء :

الفيض عند جماعة اخوان الصفاء يختلف عن الابداع الذي يقول به بعض الفلاسفة فهم يرون ان كل موجود تام فانه يفيض منه على ما دونه فيض ما ، وأن ذلك الفيض هو من جوهره ، يعني صورته المقومة التي هي ذاته • أما الابداع فهو

يعني ان الامور أبدعت وأخرجت من العدم الى الوجود ، وخاصة الأمور الروحانية الالهيه التي هي المعقول . ولنستمع اليهم وهم يتحدثون عن الفيض والابداع فيقولون (١) : « ثم اعلم أنه ما دام الفيض من الفائض يكون متواترا متصلا ، دام ذلك المفاض عليه ، ومتى لم يتواتر متصلا ، عدم وبطل وجوده ، لأنه يضمحل الاول فالاول . والمثال في ذلك الضوء في الهواء ، اذا تواتر البرق واتصل، بقي الهواء مضيئا مثل النهار ، لأن الشمس تفيض الفيض منها على الهواء متواترا متصلا ، فاذا حجز بينهما حاجز ، عدم ذلك الضوء من الهواء ، لأنه يضمحل ساعة ساعة ، ولا يتواتر الفيض عليه . وهكذا الحياة من النفس على الاجسام ما دامت متصلة متواترة ، تدوم الحياة ، فاذا فارقت النفس الجسد ، بطلت حياة الجسد من ساعته واضمحلت . وهكذا حكم وجود العالم وبقائه من الباري تعالى ، فما دام الفيض والجود والعطاء متواترا متصلا ، دام وجود العالم من الله تعالى » .

ويأتي دور كيفية حدوث العالم وابداعه من

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٣ ص ٣٥٠ .

لا شيء فيرون أن كل لبيب عاقل اذا فكر في كيفية حدوث العالم وابداع الباري له ، وخلقه أطباق السموات والارض ، وتركيبه أكبر الافلاك ، وتدويره أجرام الكواكب البسيطة والاركان الاربعة ، وتكوينه المولدات الثلاثة منها ، فلا بد من أن يعتقد فيها أحد الآراء الثلاثة : اما أن يظن ويتوهم بأنها أبدعت دفعة واحدة ، وأخرجها الباري تعالى من العدم الى الوجود على ما هي عليه الآن ، أو يظن ويتوهم بأنها أبدعت على تدريج ، فأخرجت على ترتيب أولا فأولا الى آخرها على ممر الدهور والازمان ، أو يقول بعضها دفعة ، وبعضها على التدريج ، اذ ليس في القسمة العقلية غير هذه الثلاثة . فأما من يظن ويقول أنها أبدعت دفعة واحدة بلا زمان ، فلا يجد لما يقول عليه دليلا من الشاهد فيتشكك فيما يقول (١) .

وأما من يقول انها أبدعت وأخرجت من العدم الى الوجود على تدريج ونظام وترتيب فهو يجد على ما يقول شواهد كثيرة من الموجودات باستقراء واحد . وأما من يقول ان بعضها أبدع وأحدث

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٣ ص ٣٥١ .

دفعة واحدة ، وبعضها على التدريج ، فهو يحتاج الى أن يبينها ويشرحها ويفصلها ٠

وهنا ينطلق اخوان الصفاء وخلان الوفاء ليفصلوا ويشرحوا فيقولون : « ٠٠ ان الأمور الطبيعية أحدثت وأبدعت على تدريج ممر الدهور والأزمان ، وذلك ان الهيولى الكلي ، أعني الجسم المطلق ، قد أتى عليه دهر طويل الى أن تمخض وتميز اللطيف منه من الكثيف،والى أن قبل الاشكال الفلكية الكرية الشفافة ، وتركب بعضها في جوف بعض ، والى أن استدارت أجرام الكواكب النيرة ، وركزت مراكزها ، والى أن تميزت الاركان الأربعة ، وترتبت مراتبها وانتظمت نظامها ٠ والدليل على ذلك قوله تعالى : « خلق السماوات والارض في ستة أيام » وقوله تعالى : « وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون » ٠

فاما الأمور الالهية الروحانية فحدوثها دفعة واحدة مرتبة منتظمة بلا زمان ولا مكان ولا هيولى ذات كيان ، بل بقوله : « كن فيكون » ٠ والأمور الروحانية الالهية هي العقل الفعال ، والنفس الكلية ، والهيولى الأولى ، والصور المجردة ٠

والعقل هو نور الباري تعالى وفيضه الذي فاض أولا ، والنفس هي نور العقل وفيضه الذي أفاضه الباري منه ، والهيولى الأولى هي ظل النفس وفيئها، والصور المجردة هي النقوش والاصباغ والاشكال التي عمتها النفس في الهيولى باذن الله تعالى وتأييده لها بالعقل ٠

وهذه الأمور كلها بلا زمان ولا مكان ، بل بقوله : « كن فيكون » كما قال : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » ٠ والمثال حدوث البرق ، واشراق نور الشمس في الهواء ، واضاءة الابصار ، ورؤية الاشياء دفعة واحدة بلا زمان ٠

وحتى نتوصل الى معرفة الطرف الأعلى والطرف الأدنى والبرهان عليهما يقولون (١) : « واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ، ان النفس ، لما كانت عن الحد الاول بالأمر السابق اليه من قوة الكلمة الابداعية ، كان منه الامر الانفعالي بالكلمة المبدعة ، وظهر القول وترتب وجهه وأشرق ، ليكون منه وجه الموجودات ٠ فارتبط الاول بالاول ارتباطا

---

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق مصطفى غالب ص (٢٤٨) منشورات دار صادر بيروت ٠

ذاتيا ، واستتم الأمر بالقوة المحركة ، الصادرة عن السكون ، البعيدة منه أوهام المخلوقات كلها ، نور الله ، المتحد بالتنزيه ، فأسرعت الانوار باشراقها ، وبادرت الى قبول الأمر من أعلاها ، وتسابقت ، فتكونت من حركتها مواضعها اللائقة بكل واحد منها ، ثم نطقت كلها بالسنة التوحيد ، والتجريد والتنزيه لمبدعها ، واستقرت لطائفها في كثائفها اللائقة بها ، الكائنة عنها ومنها ، فصارت الكثائف أماكن وأجسادا ، واللطائف متمكنات وأرواحا ناطقة بتوحيد خالقها ، واتصل بها الجود والافاضة ، فأفيض على كل واحد منها بحسب قوته وطاقته ، وصارت كلها ذوات أماكن ومتمكنات وأرواح وأجسام ، وتنزه مبدعها عن صفات ما هي موصوفة به ، وناداها ربها فأجابت بأجمعها : « أن لا اله الا أنت » كما قال سبحانه وتعالى حكاية عن السموات والارض ، لما قال لهما : « ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » ، فكانت الاشخاص السماوية ، وسكان الافلاك العالية أسبق بالاجابة ، وأقرب الى الطاعة ولحقت بها الاشخاص الارضية .

ولما ترتب الوجه الثاني ، مما يلي مركز الارض ، ترتب ما دونه ، وصار هو ربا له ، يربيه ، ويسوسه

سياسة لطيفة ، فهو دائب في كماله حريص على ما يعود عليه بجماله ، فهو دائب يسري في بروجه ، ويمر في منازله ، ويقتبس من أنوار من فوقه ، حتى يمتلي بحسب طاقته ويشرق ، ويستدير ، ويحاكي ما فوقه الممد له ، ثم ينحصر عن قبول ما ليس في وسعه ، ويؤدي ما فيه ، وتسري روحانياته ، وما يقبله من روحانيات من فوقه ، وتنحط كلها مع ملائكة الله ، وجنود لا يعلمها الا هو ، فتسري الأركان والأمهات فتكون متها غرائب المخلوقات ، وعجائب المصنوعات ، مما هو معاين في الموجودات (١) » .

ولم تغفل جماعة اخوان الصفاء ترتيب عالم الابداع فاعتبروا العقل هو أول موجود أوجده الباري وأبدعه من غير واسطة ، وهو جوهر بسيط نوراني فيه صورة كل شيء ، وهو باق تام . ثم أوجد النفس بواسطة العقل وهي جوهرة بسيطة روحانية حية علامة فعالة ، وهي صورة من صور العقل الفعال ، وهي باقية تامة غير كاملة . ثم أوجد الهيولى الأولى جوهر روحاني فاض من النفس

---

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق مصطفى غالب ص ٢٤٩ .

وهو باق غير تام ولا كامل : « اعلم ان علة وجود العقل هو وجود الباري ، عز وجل ، وفيضه الذي فاض منه . وعلة تمامية العقل هي قبول ذلك الفيض والفضائل على النفس بما استفاده من الباري عز وجل . فبقاء العقل اذا علة لوجود النفس ، وتمامية العقل علة لبقاء النفس ، وكماله علة لتمامية النفس ، وبقاء النفس علة لوجود الهيولى ، وتمامية النفس علة لبقاء الهيولى .

فمتى كملت النفس تمت الهيولى . وهذا هو الغرض الاقصى من رباط النفس بالهيولى ، ومن أجل هذا دوران الفلك وتكوين الكائنات لتكمل النفس باظهار فضائلها في الهيولى ، وتتم الهيولى بقبول ذلك . ولو لم يكن هذا هكذا لكان دوران الفلك عبثا . واعلم يا أخي أن العقل انما قبل فيض الباري تعالى وفضائله التي هي البقاء والتمام والكمال دفعة واحدة بلا زمان ولا حركة ولا نصب لقربه من الباري ، عز وجل ، وشدة روحانيته . فأما النفس فانه لما كان وجودها من الباري ، جل ثناؤه ، بتوسط العقل ، صارت رتبتها دون العقل ، وصارت ناقصة في قبول الفضائل ، ولأنها أيضا تارة تتوجه نحو العقل لتستمد منه الخير والفضائل ،

وتارة تقبل على الهيولى لتمدها بذلك الخير والفضائل . فاذا هي توجهت نحو العقل لتستمد منه الخير ، اشتغلت عن افادتها الهيولى ذلك الخير . واذا هي أقبلت على الهيولى لتمدها بذلك الفيض ، اشتغلت عن العقل وقبول فضائله (١) .

ولما كانت الهيولى ناقصة الرتبة عن تمام فضائل النفس ، وغير راغبة في فيضها ، احتاجت النفس الى أن تقبل عليها اقبالا شديدا ، وتعنى باصلاحها عناية تامة ، فتتعب ويلحقها العناء والشقاء في ذلك ... وأما العقل فليس يناله في تأييده النفس وفيضه عليها فضائله تعب ولا نصب ، لأن النفس جوهرة روحانية سهلة القبول ، تطلب فضائل العقل ، وترغب في خيراته ، وهي حية بالذات ، علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، قادرة صانعة بالعرض .

وأما الهيولى ، فلبعدها عن الباري ، تعالى ذكره ، صارت ناقصة المرتبة ، عادمة الفضائل ، غير طالبة لفيض النفس ولا راغبة في فضائلها ، ولا علامة ولا

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج٣ ص ١٨٢ .

مفيدة ولا حية ، بل قابلة حسب ، فمن أجل هذا يلحق النفس التعب والعناء والجهد والشقاء في تدبيرها الهيولى وتتميمها لها • ولا راحة للنفس الا اذا توجت نحو العقل وتعلقت به واتحدت معه •• » •

هذه خلاصة ترتيب الابداع والفيض والاختراع عند جماعة اخوان الصفاء يقابله عوالم ثلاث هم : عالم الاجرام ، وعالم الاجسام ، وعالم الدين ، وكل عالم من هذه العوالم ممثول للاثنين الآخرين •

اخوان الصفاء وهبوط النفس :

لم يهمل الانسان منذ وجوده على هذا الكوكب البحث والاستقصاء حول هبوط النفس من العالم الروحاني العلوي وتعلقها بالأجسام في العالم الأرضي ، أي كيفية بدء الخليقة ، لذلك نلاحظ أن الجماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء آراء ونظريات تنسجم مع ما ورد في الكتب السماوية من جهة ، وتوافق الآراء الفلسفية التي تتحدث عن هبوط النفس نتيجة خطيئة ارتكبتها في العالم الروحاني من جهة ثانية • لذلك رأينا أن نستعرض الموضوع من كلا الجانبين نظرا للفائدة المتوخاة •

يقول اخوان الصفاء (١) : « أعلم يا أخي ، أيدك الله وايانا بروح منه ، بأن الله ، جل ثناؤه ، لما أراد أن يجعل في الارض خليفة له من البشر ليكون العالم السفلي الذي هو دون فلك القمر عامرا بكون الناس فيه ، مملوءا من المصنوعات العجيبة على أيديهم ، محفوظا على النظام والترتيب بالسياسات الناموسية والملكوتية والفلسفيةوالعامية والخاصية جميعا ، ليكون العالم باقيا على أتم حالاته وأكمل غاياته ، كما ذكر في السفر الرابع من صحف هرمس وهو ادريس النبي ، عليه السلام، وذكرناه في رسالة الجامعة ، وأشرنا اليه في رسائلنا، وكما سنبين في هذه الرسالة ، فبدأ أولا ربنا تعالى فبنى لخليفته هيكلا من التراب عجيب البنية ، طريف الخلقة ، مختلف الاعضاء ، كثير القوى ، ثم ركبها وصورها في أحسن صورة من سائر الحيوانات، ليكون بها مفضلا عليها ، مالكا لها ، متصرفا فيها كيف يشاء ، ثم نفخ فيه من روحه ، فقرن ذلك الجسد الترابي بنفس روحانية من أفضل النفوس الحيوانية وأشرفها ، ليكون بها متحركا حساسا

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ١ ص ٢٩٧ .

دراكا علاما عاملا فاعلا ما يشاء ، ثم أيد نفسه بقوى روحانية سائر الكواكب في الفلك ، ليكون متهيأ له بها ، وممكنا له قبول جميع سائر الاخلاق، وتعلم جميع العلوم والآداب والرياضيات والمعارف والسياسات ، كما مكنه وهيأ له بأعضاء بدنه المختلفة الأشكال والهيئات تعاطي جميع الصنائع البشرية ، والافعال الانسانية ، والاعمال الملكية .

وذلك أنه قد جمع في بنية هيكله جميع أخلاط الأركان الاربعة ، وكل المزاجات التسعة في غاية الاعتدال ، ليكون بها متهيأ وقابلا لجميع أخلاق الحيوانات ، وخواص طباعها ، كل ذلك كيما يسهل عليه ويتهيأ له اظهار جميع الافعال ، والصنائع العجيبة ، والاعمال المتقنة المختلفة ، والسياسات المحكمة ، اذ كان اظهارها كلها بعضو واحد ، وأداة واحدة ، وخلق واحد ، ومزاج واحد يتعذر على الانسان ، والغرض من هذه كلها هو أن يتمكن للانسان ويتهيأ له التشبه بالهه وباريه الذي هو خليفته في أرضه ، وعامر عالمه ، ومالك ما فيه ، وسائس حيواتها ، ومربي نباتها ، ومستخرج معادنها ، ومتحكم ومتسلط على ما فيها ، ليدبرها تدبيرات سياسية ، ويسوسها سياسة ربوبية ، كما

رسم له الوصايا الناموسية والرياضيات الفلسفية ، كل ذلك كيما تصير نفسه بهذه العناية والسياسة والتدبير ملكا من الملائكة المقربين ، فينال بذلك الخلود في النعيم أبد الآبدين ودهر الداهرين ٠٠ » ٠

ويعتقد اخوان الصفاء أن الله سبحانه وتعالى حين ابتدع واخترع آدم وكون جسده ، قال : اني خلقت آدم وركبت بدنه من أربعة أشياء ، ثم جعلتها وراثة في ولده وذريته تنشأ في أجسادهم ، وينمون عليها الى يوم القيامة : ركبت جسده من رطب ويابس ، وحار وبارد ، وذلك اني خلقته من تراب وماء ، ثم نفخت فيه نفسا وروحا ، فيبوسة جسده من قبل التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من النفس ، وبرودته من الروح ٠ ثم جعلت في الجسد بعد هذا أربعة أنواع أخر ، هن ملاك أمور الجسد ، لا يقوم الجسد الا بهن ، ولا تقوم واحدة منهن الا بالأخرى ، فمنهن المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم ، والبلغم ، ثم أسكنت بعضها في بعض ، فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء ، والحرارة في المرة الصفراء ، والرطوبة في الدم ، والبرودة في البلغم ٠ فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الاربعة الاخلاط التي جعلتها ملاكه وقوامه ،وكانت

كل واحدة منهن ربما لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت نيته ، وان زادت واحدة منهن على أخواتها وقهرتهن ومالت بهن ، دخل السقم على الجسد من ناحيتها ، بقدر ما زادت ، واذا كانت ناقصة ضعفت طاقتها عن مقاومتهن فغلبها ودخل السقم على الجسد من نواحيهن بقدر قلتها عنهن وضعف طاقتها عن مقاومتهن (١) ٠٠ » ٠

ويشيرون الى أن الله سبحانه وتعالى عندما تبين له بأن جسد آدم سيكون معرضا للامراض والاسقام، علمه الطب وكيفية العلاج حتى يعتدل أمر جسده، ويستقيم على فطرته ، ثم نفخ فيه من روحه نفسا وروحا قرنها بجسده ، فبالنفس يسمع ابن آدم ويبصر ويشم ويذوق ويلمس ويحس ويأكل ويشرب وينام ويقعد ويضحك ويبكي ويفرح ويحـزن ، وبالروح يعقل ويفهم ويدري ويتعلم ويستحـي ويحلم ويحذر ويتقـدم ويمنـع ويتكرم ويقـف ويهجم ، فمن النفس تكون حدته وخفته وشهوته ولعبه ولهوه وضحكه وسفهه وخداعه ومكره وعنفه وخرقه ، ومن الروح يكون حلمه ووقاره وعفافه

---

(١) رسائل اوخان الصفاء : جـ ١ ص ٣٠١ ٠

وحياؤه وبهاؤه وفهمه وتكرمه وحذقه وصدقه ورفقه وصبره ، فاذا خاف ذو اللب أن يغلب عليه خلق من أخلاق النفس ، قابلة بضده من أخلاق الروح ، وألزمه اياه فيعدله به ويقومه ...

وحول قصة آدم وحواء والشجرة المنهي عنها والخطيئة التي من أجلها أهبط آدم من الجنة يقولون (١) : « اعلم أيها الأخ الفاضل الخير الدين العادل ، أعانك على طاعته وجنبك معصيته وألهمك التأييد بروح القدس ، ويهديك الى جنته ، ويبعدك عن جهنم دار البوار ، ومحل الاشرار ، انا لما شرطنا في كتبنا المؤلفة ورسائلنا المصنفة في فنون العلم وغرائب الآداب ، وطرائف الحكم ، وجعلناها بساتين العقول ، ورياضا تتنزه فيها النفوس ، وتتنسم بها الارواح ، أن رسالتنا الجامعة هي الغرض الاقصى ، وانا نبين فيها بالبراهين الشافية جميع ما شرحنا بعضه في رسائلنا بطريق الاقناع ، وكان هذا الفصل الذي تذكره من العلم غامضا دقيقا ظاهره علم جليل ، وباطنه سر نبيل مستور خفي لا يصل اليه الا أهل البصائر المرتاضون

---

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق مصطفى غالب ص ٦٥ .

بالعلوم العقلية المؤيدة بالتأييدات الربانية مما ألقته اليهم الملائكة وما أيدوا به من روح القدس وما جاء به في الكتب المنزلة ، فاذا أنت أيها الأخ البار الرحيم وقفت على هذا العلم العظيم والبناء الكريم فكن عليه قويا أمينا وكن به ضنينا ، ولا تكن من المبذرين الذين هم اخوان الشياطين ، ومع هذا فانه لا يحل لنا ولا يسمنا في شرط حكمتنا أن نجمله بغير حجاب يحجبه ، ولا باب يغلق عليه فيستره ، ولكنا فتحنا لك فرد بابه وسهلنا عليك كشف حجابه لتطلع عليه وتقف ان وفقك الله وهداك ... » .

وبعد هذه المقدمة العميقة السهلة التي بينوا فيها أهمية هذه العلوم الماورائية وضرورة المحافظة على حجبها عن غير أهلها يبدأون بذكر آدم وحواء والشجرة المنهي عنها وحيلة ابليس عليهما ووصوله بالمكر اليهما . فقالوا (١) : « قال الحكيم : ان الله سبحانه لما خلق آدم وأسكنه الجنة التي هي دار كرامته ومحل نعمته في جواره الأمين ، وقراره المكين ، ومقر عباده المصطفين ، من الملائكة المقربين .

---

(١) المصدر نفسه ص (٦٦ - ٦٧) .

وعهد اليه أن لا يقرب شجرة عرفه بها ونهاه عن أكلها وأعلمه أنها مذخورة الى وقت معلوم ، وأن بها يكون العود الى البداية وأنها لا تبدو ثمرتها ، ولا يحل أكلها الا عند النهاية ، وانها بقيـة دور الكشف الاول فتكون مدة دور الستر الذي قدر الله سبحانه أن آدم أول المستخلفين فيه ، وان ثمر تلك الشجرة يكون مستورا في أكمامها ، مخبوءا تحت ورقها ، مكمنا في أغصانها ، مستورا مخفيا لا يكاد مخلوق في دور الستر يقف عليها ولا يصل اليه ، ولا يتناول شيئـا منه الا في الوقـت الذي قدره والزمان الذي يسره ، اذا بدا دور السعادة بظهور النفس الزكية في يوم العرض الثاني اذا تجلت النفس الكلية لفصل القضاء فعند ذلك تبدو شجرة سدرة المنتهى وبها تكون النشأة الاخرى وعهد الله الى آدم وأطلعه على ذلك وأعلمه أنه لا يكـون في وقته ولا يتهيأ له في زمانه وأباحه ما سوى ذلك من أكل الشجر والتناول من أصناف الثمر ما يكون غذاء له ولمن هو معلم له ، فلما زين له الشيطان سوء عمله ، وحمله على ارتكاب ما نهي عنه ، وأخذ ما لا يحل له ، وتناول ما حظر عليه ، ولم يمكنه ذلك منه الا بالحيلة عليه ، والملاطفة له ولزوجته .

فكان من حاله أنه جاءه في صورة الناصح الأمين الشفيق ، يطلب منه الفائدة بالسؤال والتذلل ، فقال له : انك قد أتاك الله من العلم والحكمة والمعرفة ما لم يعرفه أحدا قبلك ، وقد فضلك الله على جميع الملائكة الذين أمرهم بالسجود لك ، والخضوع بين يديك ، جعلك معلما لهم تعلمهم أسماء ما يكون ، ولم يبق عليك الا معرفة شيء واحد لو عرفته لكنت من الملائكة العالين الذين لم يؤمروا بالسجود لك ، ولم يدخلوا في طاعتك ، ولهم المقامات العالية ، والدرجات السامية عند الله . فقال له آدم : وما هذا العلم الذي أخفاه الله عني ، ولم يطلعني عليه ، وقد علم اني محتاج اليه وغير مستغن عنه ؟

فقال له عدوه ، يريه أنه له من الناصحين : هو علم القيامة ، وكون النشأة الآخرة ، والبروز لفصل القضاء ، وكيفية بروز الصور الروحانية المعراة من الاشخاص الهيولانية في دار البقاء ، ولو علمت هذا العلم أنت وزوجتك ، لكنتما ملكين وكنتما من الخالدين ، على أنهما لو كانا من أهل دور الكشف لكانت خلقتهما روحانية ولم تكن جسمانية ، اذ كان البقاء والخلود على الحال الافضل بالنفس

أشبه من الجسم • فعند ذلك اشتاقت نفس آدم الى ذلك ، وأراد الاطلاع عليه بالاظهار له من حد القوة الى حد الفعل ، ليرى كيف يكون دور الكشف وكيف يكون قبول أهل ذلك الزمان واستجابتهم اليه وكيف تكون منزلة النفس الزكية في ذلك الوقت ، فأبدى شيئا مما نهى عنه الى غير أهله ، واطلع عليه غير مستحقه ، ووضع منه شيئا في غير موضعه ، فكان بمنزلة الاكل الذي نهى عنه ، فلما بدا ذلك منه اضطربت عليه أحواله واستوحشت منه عماله ، وقبحت أعماله ونفرت منه الوحوش التي كانت قد انست به وتباعدت عنه الطيور التي كانت قد ألفت صورته ونزع عنه لباسه ، وبدت عنه سوآته، وانكشفت عورته ، وظفر به عدوه ، وأقبل يفرق عنه جموعه ، ويبعد أهل الجنة عنه ويدعوهم الى نفسه ، فعند ذلك ناداهما ربهما : « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة • قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا » بوضعنا ما نهيتنا عنه في غير موضعه ودفعه الى من لا يستحقه ، قال : « اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو » فأهبط من دار الملائكة التي كان فيها وأخرج منها اذ كان أهل الجنة قد سئموا موضعه ، واستوحشوا من شخصه ،

لما بدت سوأته وانكشفت عورته ورأوه بعين من جاءهم بما لا يعرفونه ، وبما ينكرونه من المعصية فظفر به عدوه ، وخرج آدم وزوجته من الجنة سائحين في الارض لا يدريان أين يتوجهان من بلاد الله ، وبهما من الندامة ما جاوز وصف الواصفين، وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وقد زالت الرياسة عنهما وتدبير السياسة النبوية منهما فلما طالت المحنة بآدم استرجع القول ، وناجى ربه وتوسل اليه بالقائم في ذلك الوقت الذي فيه ظهور الحقائق، وبأصحاب المقامات العالية في ذلك الزمان الذين هم الكلمات التامات ، والآيات الباهرات ، وانه لم يتعمد ذلك وانما اشتاق الى تلك المنزلة الجليلة والدرجة الرفيعة بغير انكار لها ولا استكبار عن الاقرار بفضل صاحبها ، فعند ذلك تاب الله سبحانه عليهما ، ويسر لهما العيشة ، وبعث اليهما ملكا من الملائكة فعلمهما الحرث ، والنسل ، والزرع ، والبذر ، والحصاد ، والغرس ، واللباس ، والرياش ، وما يحتاجان اليه في الحياة الدنيا لقوام الأجساد في محل الكون والفساد ، وتلقى آدم التأييد والالهام والوحي ، وأمر باقامة الشريعة والسجود لله ، والعمل بالجسم ، واظهار الصنائع ، وكثر

أولاده ، وانتشر غسله ، واتسعت دعوته ، وعمرت داره ، وقر في قراره ، وكان على ذلك مدة ما شاء الله تعالى سبحانه أن يبقى على تلك الحال الى أن استكمل أجله فنقل الى دار كرامته ودار البقاء ، وأراه ما عجل فيه ليراه وهو في محل الاجساد ، فلم يخب سعيه ، ولا أحبط عمله لما تاب وأناب (١) » .

هذه مجمل آراء وأقوال جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء في بدء الخليقة ووجود الانسان الاول بحثوه وفق ما تحدثت به الكتب السماوية المنزلة ، وكما أشارت اليه بعض الأساطير التـي ترويهـا الاجيال خلف عن سلف من آلاف السنين ، أما رأيهم في الشق الثاني من الموضوع ، أي (المبدأ) من الناحية الروحية الفلسفية ، فهم يرون ان الابتداء كان نتيجة خطيئة ، أو بالأحرى مجرد سهو وقع على بعض العالم الروحاني فأوجب الهبوط والتكثف . فقالوا « اعلم ان الله تعالى لما خلق جسد آدم ، عليه السلام ، أبي البشر من التراب ، وصوره في أحسن تقويم ، وأحسن صورته ، وأحكم بنيته ، ثم نفخ فيه من روحه ، صار ذلك الجسد الترابي بتلك

(١) الرسالة الجامعة : ص (٦٩ ـ ٧٠) .

الروح الشريفة حيا عالما قادرا . ثم فضله بما علمه من الاسماء على بعض الملائكة لا عليهم كلهم ، وأمرهم بالسجود له من أجل تلك الروح الشريفة التي نفخ فيه ، لا من أجل الجسد الترابي .وابليس اللعين لما نظر الى الجسد الترابي ، وعرف ورأى تلك الروح الشريفة الفاضلة العالمة قال : « أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين » اذ النار خير من التراب ، لأن النار جسم مضيء متحرك يطلب العلو ، والتراب جسم مظلم ساكن يطلب السفل . وكان هذا منه قياسا خطأ ، لأن الانسان انما يأكل ويشرب وينام من أجل الجسد ، ويتحرك ويحس ويتكلم ويعلم بالنفس الشريفة التي من أمر الله (١) » .

وفي حديثهم عن مهنة النفوس واخراجها من عالم الأرواح لجناية كانت منها يقولون (٢) : « اعلم أيها الأخ أن النفس الجزئية لما أهبطت من عالمها الروحاني ، وأسقطت من مرتبتها العالية للجناية ، وغرقت في بحر الهيولى ، وغاصت في قعر

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٣ ص (١٨ - ١٩) .
(٢) المصدر نفسه : جـ ٤ ص (١٨٤ - ١٨٥) .

أمواج الاجسام وقيل لها : « انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب » فنفرقت في هياكل الاجسام ، وتفرقت بعد وصلتها وتشتت شمل ألفتها ، كما ذكر الله ، عز وجل اسمه ، بقوله : « اهبطوا منها جميعا » الآية ، الى قوله : « ومنها تخرجون » عرض لها عند ذلك من الدهشة والاهوال والمصائب ، فمن أجل هذه الشدائد والمصائب صارت النفس لا تذكـر شيئا مما كانت فيه من أمر عالمها ومبدأها ومعادها كما قال الله،جل ذكره : «واذا ذكروا لا يذكرون» ·

ويعتقد جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء أنه قد أتى على النفس دهر طويل قبل تعلقها بالبدن ذي الابعاد ، وكانت هي في عالمها الروحاني ومحلها النوراني ودارها الحيوانية مقبلة على علتها العقل الفعال تقبل منه الفيض والفضائل والخـيرات ، وكانت منعمـة متلـذذة ، مستريحـة ، مسرورة فرحانة · فلما امتلأت من تلك الفضائل والخيرات، أخذها شبه المخاض ، فأقبلت تطلب ما تفيض عليه تلك الخيرات والفضائل · وكان الجسم فارغا قبل ذلك من الاشكـال والصور والنقوش ، فأقبلـت النفس على الهيولى تميز الكثيف مـن اللطيف ، وتفيض عليه تلك الفضائل والخيرات · فلما رأى

الباري تعالى ذلك منها مكنها من الجسث وهيأ لها ، فخلق من ذلك الجسم عالم الافلاك وأطباق السماوات من لدن فلك المحيط الى منتهى مركز الارض،وركب الافلاك بعضها في جوف بعض ، وركـز الكواكب مراكزها ، ورتب الاركان مراتبها على أحسن النظام والترتيب بما هي عليه الآن ، لكيما تتمكن النفس من ادارتها وتسيير كواكبها ، ويسهل عليها اظهار أفعالها وفضائلها والخيرات التي قبلتها من العقل الفعال . فهذا الذي كان سبب كون العالم ، أعني عالم الاجسام ، بعد أن لم يكن ...

الآباء والأمهات في الولادة الروحانية :

يرى اخوان الصفاء أن الأب والأم في الروحانيات هما آية الليل والنهار ، فالنفس المتحركة الحساسة كائنة في الجسد من القوة الكائنة بالأمر المتحد بالحد للثاني المتحرك بالقوة المنبعثة منه بالوجه الناطق بالأمر الجزئي ، المتحرك كحركة الذكر ، لتبدو منه بالشوق النطفة الكائن منها جسم الانسان ، كذلك الابوان العلويان ، تحدث من الاول حرارة قوية منبثة من نوره ، متصلة ببرودة تحدث من الأم الثاني ، فبامتزاجهما واتصالهما تكون النفس

متصلة بالجسد ، وتكون الولادة والظهور من القوة الى الفعل ، من بين الأبوين ذكر وأنثى ، حتى يكون مشاكلا لما بدا منه ، فاذا ظهر وهو كامل البنية ، مستقيم الخلقة ، تام الصورة ، يسلمه أيضا والداه الجسمانيان ، اللذان ولدا جسمه الى والدين روحانيين بالفعل ، ليخرجا بالتعليم من حد القوة الى حد الفعل ، فيظهر ما يكون في نفسه (١) » كما قال أرسطوطاليس الالهي لما تمت حيلته على الملك الذي أراد خراب بلده ، لما شكره الناس ودعوا لوالديه ، أعني أباه وأمه قال ليس هذان أبواي على الحقيقة ، انما أبي أفلاطون الذي ولد عقلي وعلمني الحقيقة ، فله يجب الدعاء اذا ألقيت في طريق التعاليم ، واكتسبت منه عقلا بحسب المقدر له ، وبما يدرس الكتب الالهية والتنزيلات السماوية ، ذات التأويلات النبوية ، والسياسة الفلسفية ، فالمعلم له علوما صناعية أرضية بمنزلة الأم ، والمعرف له بطرق السماء وبالعلوم النبوية والآراء الفلسفية بمنزلة الأب ، فيعود الخلق الى أوله ، وهو على غاية الكمال ، ونهاية التمام والجمال ، اذا استكمل هذه الخصال ، فأبواه في

---

(١) الرسالة الجامعة : ص ٢٥٤ .

البداية الشمس والقمر ، وأبواه في ولادة الدنيا الأنثى والذكر ، وأبواه عند خروجه الى دار الآخرة معلم حميد وأستاذ رشيد ممن يعمل في الشرائع النبوية ، والصنائع الفلسفية ، فبهذه الولادة يكون التمام ، والبلوغ الى درجة الكمال ، وكذلك قال المسيح : من لم يولد الولادتين لم ير ملكوت السماء• فللنفس ولادتان واياهما عنى المسيح ، وللجسم ولادة واحدة ، ولا ذكر لها ، فاعلم ذلك ، أيها الأخ وتدبره ، عساك ترقى الى درجة الابرار ، وترافق الاخيار ، وتفارق الاشرار ، بلغك الله وايانا وجميع اخواننا ، حيث كانوا في البلاد ، بمنه ولطفه ، انه كريم جواد ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » •

الانسان عالم صغير :

يؤكد اخوان الصفاء وخلان الوفاء ان الانسان عالم صغير ، وانه في معنى العالم الكبير يؤدي عن جملته ، وانه ثمرته وزبدته بما اتحد به من قوة نفسه المتصلة بالجوهر الاول والنور الافضل ، بما من الله سبحانه به عليه من جوده وفضله ، الذي كان به حسب وجوده بكلمته الممجدة ، المتحدة

بالأمر ، فكانت منه الاشياء كلها ، ككون الاعداد المنبثة عن الواحد ، وكذلك كانت النفس الكلية منبعثة من العقل كانبعاث الواحد المضاف الى الأول، الواقع عليه اسم الاثنين ، اذ كان يتلوه ، وان كانت صورة الثاني مثل الاول ، وانما بينهما التقدمة باللفظ في السبق ، وان الاول قد كان متقدم الوجود بالمرتبة ، وبما اختص به من الفضل اذ كان موضع الكلمة الممجدة ، وكانت النفس موضع الامر الثاني من المبدع الاول ، وكانت بالابداع الثاني ، ثم كذلك ما بدا عنها مما جعل فيها من القوة التامة والنعمة العامة ، فبرزت عنها الصورة الهيولانية الأولى فالأولى ، وكان منها العالم الكبير بما فيه من الخلائق الروحانيين ، من الملائكة المقربين بتدبير الهي ، وحكم رباني .

« ثم كان العالم الصغير بوساطة العالم الكبير ، اذ كان ما يتصل به من لطائف النفس التي هي الحياة والحركة لا تتحد به حتى تسري فيما هو اليها أسبق ، وبها ألحق ، ثم تتدلى اليه ، وتنزل عليه ، وتتصل به ،فلذلك سمت العلماء،والمتقدمون من الحكماء الانسان عالما صغيرا ، اذ كانت صورة هيكله مماثلة لصورة العالم الكبير ، وان فيه قوى

مختلفة متضادة الافعال ، متباينة الاعمال ، فمنها خيرة فاضلة تشبه الملائكة ، وشريرة رذلة تشبه الشياطين ، وخفية مكامنة تشبه الجن ،وروحانيات الكواكب بادية وظاهرة كظهور الموجودات من النبات والحيوان ، ولما ذكرنا في هذه الرسالة أعني رسالة الانسان عالم صغير ، جوامع من القول في هذا المعنى ودللنا عليها وبينا معانيها ، ذخرنا لهذه الرسالة الجامعة نكتا من الحكمة ، وفوائد من النعمة تليق بهذا المكان في هذه الرسالة بزيادة شرح ، وبيان ، وشفاء من الوضوح والبرهان (١) » ٠

النفس عند اخوان الصفاء :

يعتبر اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، النفس ، جوهرة روحانية سماوية حية بالذات علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، تظل بعد مفارقة الجسد ، اما ملتذة مسرورة فرحانة ، واما مغتمة خاسرة ٠ وهذه النفس ، باعتقادهم ، جزء من النفس الكلية ، ولكنها غير منفصلة منها ولا هي هي بعينها ، ولنستمع اليهم ماذا يقولون (٢) : « وأما الصفات

(١) الرسالة الجامعة : ص (٢٥٥ ـ ٢٥٦) ٠
(٢) رسائل اخوان الصفاء : ج ١ ص ٣٦٠ ٠

المختصة بالنفس بمجردها فهي أنها جوهرة روحانية سماوية نورانية حية بذاتها علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، قابلة للتعاليم ، فعالة في الاجسام ، ومستعملة لها ، ومتممة للاجسام ومفارقة لها ، وراجعة الى عنصرها ومعدنها ومبدئها كما كانت اما بربح وغبطة أو ندامة وحزن وخسران ، كما ذكر الله ، عز وجل بقوله : « كما بدأكم تعودن : فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة » • وقال عز وجل : « كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا انا كنا فاعلين » • وقال تعالى : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » •

ويرى اخوان الصفاء ان النفوس من حيث النفسية ، جوهر واحد ، كما أن الاجسام ، من حيث الجسمية ، جوهر واحد ، وانما تختلف النفوس بحسب اختلاف قواها ، واختلاف قواها بحسب اختلاف أفعالها ومعارفها وأخلاقها ، كما ان اختلاف الاجسام بحسب اختلاف أشكالها ، واختلاف أشكالها بحسب اختلاف أعراضها : « واعلم بأن نفس العالم نفس واحدة ، كما ان جسمه جسم واحد بجميع أفلاكه وكواكبه وأركانه ومولداته ، ولكن لما كانت لنفس العالم أفعال كلية بقوى كلية،

وأفعال جنسية بقوى جنسية ، وأفعال نوعية بقوى نوعية ، وأفعال شخصية بقوى شخصية ، وهي حركتها من المشرق الى المغرب وبالعكس ، ومن الشمال الى الجنوب وبالعكس ، ومن فوق الى أسفل وبالعكس ، ومن الشمال الى الجنوب وبالعكس ، ومن فوق الى أسفل وبالعكس ، سميت هذه القوى بأفعالها نفوسا جنسية ونوعية وشخصية ، فتكثرت النفوس بحسب قواها المختلفة ، وتكثرت قواها بحسب أفعالها المفتنة ، كما تكثر جسم العالم بحسب اختلاف أشكاله ، وتكثرت أشكاله بحسب اختلاف أعراضه ، فأفعال نفس العالم الكلية هي ادارتها وأفعالها الجنسية ما يختص بكل فلك وكل كوكب من الحركات الست العارضة ، وما يختص بالأركان الاربعة التي تحت فلك القمر من الحركات الطبيعية ، وأفعالها النوعية ما يختص بالكائنات المولدات التي هي الحيوان والنبات والمعادن وفعالها الشخصية التي تظهر من أشخاص الحيوانات وما يجري على أيدي البشر من الصنائع (١) » .

وعندما أبدع الباري تعالى النفوس واخترعها

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ﺟ ١ ص ٢٩٢ .

وأبرز المستكن والمستجن من الكائنات ، رتبها ونظمها كمراتب الأعداد المفردات ، نذكر طرفا من مراتبها ومقاماتها الجنسية ، اذ كانت الانواع والاشخاص لا يمكن تعديدها ولا يعلمها الا هو ·

« واعلم يا أخي بأن مراتب النفوس ثلاثة أنواع ، فمنها مرتبة الأنفس الانسانية ، ومنها ما هي دونها ، فالتي هي دونها سبع مراتب ، والتي هي فوقها سبع أيضا ، وجملتها خمس عشرة مرتبة ، والمعلوم من هذه المراتب التي ذكرناها عند العلماء، ويمكن لكل عاقل أن يعرفها ويحس بها ، خمس ، منها اثنتان فوق رتبة الانسانية وهي رتبة الملكية والقدسية ، ورتبة الملكية هي رتبة الحكمية ، ورتبة القدسية هي رتبة النبوة والناموسية ، واثنتان دونها وهي مرتبة النفس النباتية والحيوانية ، ويعلم صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا، الناظرون في علم النفس من الحكماء والفلاسفة وكثير من الاطباء · وأما الرتبتان اللتان فوق رتبة الانسانية فهي مرتبة الحكمة وفوقها الناموسية ، وأما مرتبة الانسانية فهي التي ذكرها الله تعالى بقوله : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » ، وأما التي فوق هذه فما أشار اليه بقوله : « ولما

بلغ أشده واستوى ـ يعني الانسان ـ آتيناه حكما وعلما » • وقال أيضا : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثلـه في الظلمات ليس بخارج منها » • يعني الانســان ، أحيينا نفسه بنور الهداية ، وهذه مرتبة نفوس المؤمنين العارفين والعلماء الراسخين •

وأما التي فوقهـا فمرتبــة النفوس النبويـة الواضعين النواميس الالهية ، واليها أشار بقوله جل ثناؤه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وهذه المرتبة تلي مرتبـة القدسية الملكية • فقد تبين ، بما ذكرنا ، المراتب الخمس التي يمكن الانسان أن يعلمها ويحس بها • فأما المراتب التي دون النباتيـة وفوق القدسيـة فبعيدة معرفتها على المرتاضين بالعلوم الالهيــة ، فكيف على غيرهم ؟ » •

وبعد أن عددوا مراتـــب النفوس الخمـــس ، وأشاروا الى الفائدة والحكمة من رباطها بالأجسام، التفتوا الى ما يخص كل نوع منهـا من المعاونـة والتأييد ، وهي القــوى الطبيعيـة ، والاخــلاق المركـوزة ، والهياكـل الجسمانيـة ، والادوات

الجسدانية ، والشعورات الحسية ، والاوهام الفكرية ، والحركات المكانية ، والافعال الارادية، والاعمال الاختيارية ، والصنائع الحكيمة ، والاوضاع الناموسية ، والسياسات الملكوتية (١) ·

ويعتقد اخوان الصفاء ان الجسد كالدار ، وان النفس كالساكن في الدار ، وقد بنيت وأحكم بناؤها ، وقسمت بيوتها ، وملئت خزائنها ،وسقفت سطوحها ، وفتحت أبوابها ، وعلقت ستورها ، وأعد فيها كل ما يحتاج اليه صاحب المنزل في منزله · ويشبهون الجسد ،بالنسبة للنفس، كدكان الصانع ، وان جميع أعضاء الجسد للنفس بمنزلة أداة الصانع في دكانه ، وان النفس بكل عضو من أعضاء الجسد تظهر ضروبا من الافعال وفنونا من الاعمال ، كما ان الصانع بكل أداة يعمل ضروبا من الاعمال وفنونا من الحركات ·

ولم يقفوا في أمثالهم وتشبيهاتهم عند هذا الحد بل نراهم يشبهون الجسد بالنسبة للنفس بالمدينة التي تغص بآلاف السكان ، معتبرين حالات الجسد

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٢ ص ٣٨٤ ·

تشبه حالات المدينة ، وتصرفات النفس تشبه تصرفات أهل المدينة فيها (١) . « اعلم أن في هذه النفس الساكنة في هذا الجسد قوى طبيعية وأخلاقا غريزية منبثة في أعضاء هذا الجسد تشبه قبائل أهل تلك المدينة وشعوبها النازلين في المحال بتلك المدينة ، وان لتلك القوى وتلك الاخلاق أفعالا وحركات منبثة في أوعية هذا الجسد ، ومجاري مفاصله تشبه أفعال أهل تلك المدينة في منازلهم ، وحركاتهم في طرقاتها ، وأعمالهم في أسواقهم . فأما القوى الطبيعية والاخلاق الغريزية التي تشبه القبائل والشعوب فهي ثلاثة أجناس : فمنها قوى النفس النباتية ونزعاتها وشهواتها : فضائلها ورذائلها ، ومسكنها الكبد ، وأفعالها تجري مجرى الأوراد الى سائر أطراف الجسد . ومنها قوى النفس الحيوانية وحركاتها وأخلاقها وحواسها وفضائلها ورذائلها ، ومسكنها القلب ، وأفعالها تجري مجرى العروق الفوارب الى سائر أطراف الجسد . ومنها قوى النفس الناطقة وتمييزاتها ، ومعارفها ، وفضائلها ورذائلها ، ومسكنها الدماغ، وأفعالها تجري مجرى الاعصاب الى سائر أطراف

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٢ ص ٣٨٢ .

الجسد · ثم اعلم ان هذه النفوس الثلاث ليست متفرقات متباينات بعضها من بعض ، ولكنها كلها كالفروع من أصل واحد متصلات بذات واحدة كاتصال ثلاثة أغصان من شجرة واحدة ، تتفرع من كل غصن عدة قضبان ، ومن كل قضيب عدة أوراق وثمار ··· فهكذا أمر النفس ، فانها واحدة بالذات ، وانما تقع عليها هذه الاسماء بحسب ما يظهر منها من الافعال ··· » ·

ويوجه اخوان الصفاء اهتمامهم الى قوى النفس الحساسة ، فيرون أن لها خمس قوى حساسة يشبهونها بأصحاب الاخبار في المدينة الذين ينقلون أخبار المدينة للملك الذي مثلوه بالنفس ، واعتبروها هي التي ولت كل واحدة من هذه القوى على ناحية من أنحاء المدينة لتأتيها بالأخبار والمعلومات من تلك الناحية ، من غير أن تشترك معها قوة أخرى ·

ويقولون : « ان القوة السامعة التي مجراها في الأذنين ، فان النفس قد ولتها ادراك المسموعات فحسب ، وهي الاصوات · والاصوات نوعان : حيوانية وغير حيوانية ، فغير الحيوانية كصوت

الطبل ، والرعد ، والحجر والشجر ، والزمر ، والأوتار وما شاكل ذلك • والحيوانية نوعـان : منطقية وغير منطقية ، كصهيل الخيل ، ونهيق الحمار ، وخوار الثور • وبالجملة فان أصـوات الحيوانات غير الناطقة والمنطقية نوعان : دالـة وغير دالة : فغير دالة كالألحان والنغمات والضحك والبكاء والصراخ والأنين وغير ذلك • والدالة هي التي تلفظ بالحروف المعجمة ، وهي التي تدل على المعاني في أفكار النفوس ••• وان القوة السامعة هي المتولية ادراكها ، المتصرفة عليها باتيان الاخبار عنها الى القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ •

وأما القوة الباصرة التي مجراها العينين ، فان النفس قد ولتها ادراك المبصرات ، وهي تنقسـم أنواعا ، فمنها الانوار والظلمة ، ومنها الالوان • وما يتولد عند التركيب من سائر الالوان • ومن المبصرات أيضا المقادير ذوات الابعاد ، والاشكال والصور والحركات والسكون ، وكل نوع من هذه تحته أنواع ، وتحت تلك الانواع أشخاص ، وهي كلها تحت ادراك القوة الباصرة ، تاتي بالأخبـار عنها الى القوة المتخيلة •

واما القوة الشامة التي مجراها في المنخريـن ، فان النفس قد ولتها ادراك الروائح والتصرف فيها، والتمييز لها ، وهي نوعان : لذيذة وكريهة • واما القوة الذائقة التي مجراها في اللسان فان النفس قد ولتها أمر الطعوم والادراك لها والتصرف فيها وتمييز بعضها من بعض ، وهي تنقسـم تسعـة أنواع • وأما القوة اللامسة التي مجراها باليدين، فان النفس قد ولتها أمر الملموسات وهـي عشرة أنواع : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسـة واللين والخشونة والصلابة والرخـاوة والثقـل والخفة (١) •

وما مثل النفس مع قواها هذه الخمس الحساسة، واختلاف محسوساتها ، وما تحت كل جنس منها من الانواع والاشخـاص المختلفـة الصور ، المفننـة الاشكال المتباينة الهيئات ، الا كخمسة من الانبياء، أولي العزم من الرسل ، مرسلهم واحد ، وشرائعهم مختلفة ، وتحت كل شريعة مفروضات مفننـة ، وأحكام متباينة ، وسنن متغايرة ، تحت أحكامها أمم كثيرة لا يحصي عددها الا الواجب الوجود ،

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٣ ص ٤٧١ •

الواحد من جميع الوجوه ؛ وكما ان تلك الأمم كلهم يرجعون الى الله ليفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، فهكذا حكم المحسوسات كلها ، مرجعها الى النفس الناطقة لتميز بعضها عن بعض ،وتعرف واحدا واحدا منها بحقائقها ، وتحكم عليها ، وتنزلها منازلها » ٠

وبالاضافة الى هذه القوى قالوا بأن للنفس خمس قوى أخر نسبتها الى النفس بخلاف الخمس قوى التي تقدم ذكرها ، وكذلك سريانها في الجسد هو غير سريان أولئك ، وأفعالها لا تشبه أفعالها ٠ وهي : القوة المتخيلة ، والقوة المفكرة ، والقوة الحافظة ، والقوة الناطقة ، والقوة التي بها تظهر النفس الكتابة والصنائع أجمع ، ومجراها في اليدين والاصابع ، وتعرف بالقوة الصناعية ٠ وذهبوا الى أن هذه القوى الخمس هي المتعاونات فيما يتناولن من صور المعلومات ٠ « اعلم يا أخي أنه اذا تفكر الانسان العاقل الفهيم في هذه القوة التي تقدم ذكرها ؛ وكيفية سريانها في أعضاء الجسم ، وتصرفها في ادراك هذه المحسوسات ، وتصورها رسوم المعلومات ، واطلاع النفس عليها كلها في جميع حالاتها ، تكون هذه شاهدة له من

نفسه لنفسه ، ودليلا من ذاته على أن للنفس الكلية قوى كثيرة منبثة في فضاء الافلاك وأطباق السموات، وأركان الأمهات ، وفي الحيوانات ، والنبات ، موكلة بحفظ الخليقة ، ومرتبة لصلاح البرية ، وهم ملائكة الله جل اسمه ، وخالص عباده وصفوته من بريته ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون من غير خطاب ولا كلام ، فهكذا هذه القوى تتصرف في حوائج النفس من غير كلام منها لهن ولا خطاب • ويتبين له أيضا أن الله ، جل ثناؤه ، مطلع على أسرار جميع العالمين وأحوالهم لا يغرب عنه من أسورهم مثقال ذرة ، كما أن نفسه مطلعة على جميع محسوسات حواسها ومعلومات قواها ، وهن منقادات لأمرها في ما يأتين به اليها من أخبار محسوساتها من غير كلام لهن منها ولا خطاب (١) » •

ويتعرض جماعة اخوان الصفاء الى كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الاجساد البشرية الطبيعية فيقولون ان الجسد للانفس بمنزلة الرحم للجنين ، وذلك أن الجنين اذا استتمت في الرحم بنيته ، وتكملت هناك صورته ، خرج الى هذه الدار تام

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٢ ص ٤٧٣ •

الخلقة ، سالم الحواس ، وانتفع بالحياة فيهـا ، وتمتع بنعيمها الى وقت معلوم ، فهكذا يكون حال الأنفس في الدار الآخرة،وذلك أن الانفس الجزئية، اذا استتمت ذواتها بالخروج من القوة الى حيز الفعل بما تستفيده من العلوم والمعارف بطريق الحواس، واستكملت صورتها بما تكتسبمن الفضائل بطريق المقولات والتجارب والرياضات ، وما يدبر في هذه الدار من السياسات من اصلاح أمر المعاش علـى الطريقة الوسطى ، وتمهد أمر المعاد على سنـن الهدى وتهذيب النفس بالأخلاق الجميلـة والآراء الصحيحة والاعمال الصالحة ، كل ذلك بتوسط هذا الجسد المؤلف من الدم واللحم • ثم ان فارقته على بصيرة منها ومن أمرها ، وقد عرفت جوهرها ، وتصورت ذاتهـا ، وتبينت أمر عالمهـا ومبدئهـا ومعادها ، كارهة للكون مع الجسد ، بقيت عند ذلك مفارقة للهيولى ، واستقلت بذاتها ، واستغنت بجوهرها عن التعلق بالأجسام ، فعند ذلك ترتقي الى الملأ الاعلى ، وتدخل في زمرة الملائكة ، وتشاهد تلك الامور الروحانيـة ، وتعاين تلـك الصـور النورانية التي لا تدركها بالحواس الخمس ، ولا تتصور في الاوهام البشرية ، كمـا ذكر هـذا في

الرموزات النبوية أن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر من النعيم واللذة والسرور والفرح والروح والريحان ، كما قال الله تعالى : « فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » • وقال : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » •

ويواصل اخوان الصفاء شرحهم لكيفية ارتشاف النفس رحيق العلوم والمعارف ما دامت مرتبطة بالأجساد البشرية متهيأ لها ادراك المحسوسات ، وذلك لأن العلم والحكمة للنفس كتناول الطعام والشراب للجسد • فبالعلم والحكمة تتصور الانفس الجزئية جواهرها ، وتنمو ذواتها ، وبالمعارف تضيء صورها ، وبالرياضيات تقوي فكرها ، وبالآداب تنير خواطرها ، وتتسع لقبول الصور المجردة الروحانية عقولها ، وتعلو الى اشتياق الأمور الخالدة همتها ، فتترقى في المراتب العالية بالنظر في العلوم الالهية ، والسلوك في المذاهب الروحانية الربانية • « ثم اعلم أن النفس ، اذا انتبهت من نوم الغفلة ، واستيقظت من رقدة الجهالة ، واجتهدت وألقت من ذاتها القشور

الجسمانيــة ، والغشاوة الجرمانيــة ، والعــادات الطبيعية ، والأخلاق السُبعية ، والآراء الجاهلية ، وصفت من درن الشهوات الهيولانية ، تخلصـت وانبعثت وقامت فاستنارت عند ذلك ذاتها وأضاء جوهرها وأشرقت أنوارها واحتد بصرها (١) • فعند ذلك ترى تلك الصورة الروحانية ، وتعاين تلك الجواهر النورانية ، وتشاهد تلـك الامور الخفية والأسرار المكنونة التي لا يمكن ادراكهـا بالحواس الجسمانية ، والمشاعر الجرمانية ، ولا يشاهدها الا من تخلصت نفسه بتهذيب خلقه ، اذا لم تكن مربوطة بارادة طبيعية ، ومقيدة بشهوات جسمانية يلوح فيها فيعاينها • فاذا عاينت تلـك الأمور تعلقت بها تعلق العاشق بالمعشوق ،والتزمتها التزام الحبيب المحبوب ، واتحدت بها اتحاد النور بالنور ، فتبقى معها ببقائها وتدوم بدوامهـا ، وتفرح بروحها وريحانها ، وتشم بنفختها ، وتلذ بلذاتها ، التي عجزت الألسن الانسانية عن التعبير عنها ، وقصرت أوهام المتفكرين عن أن تتصورها بكنه صفاتها » •

---

(١) المصدر نفسه : جـ ٣ ص ٨ •

وفي الرسالة الجامعة يتحدث اخوان الصفاء عن الباب الذي منه تدخل النفوس الطائعة الى الجنة التي هي عالم الروح والريحان ، وهو الباب الذي موكل به وعليه رضوان خازن الجنان • ويقولون (١) : « وبهذا العلم يكون الاطلاع في دار الدنيا على كيفية النعيم المقيم ، والملك العظيم، ومعرفة البعث الى روح وريحان وجنة نعيم • واعلم يا أخي أن النفس الطائعة اذا أكملت طاعتها ، وبلغت نهايتها وانتهت الى غايتها في الصور الانسانية ، واستحقت بأعمالها الزكية ، وما كسبته من أفعالها صورة ملكية ، والنقلة الى رتبة سماوية، ونزل الموت بساحتها ، نزلت اليها الملائكة الطيبون بالرأفة والرحمة ، وهي روحانيات الزهرة ، وروحانيات المشتري ، بالرأفة ، والرحمة ، والشفقة ، فتلقتها ، وقبلتها بالروح والريحان ، كما تقبل القوابل والدايات لأولاد الملوك بمفاخر أمور الدنيا ، وطيبات روائحها ، ومناديل السندس والاستبرق ، والفرح ، والبهجة ، والسرور ، ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب

---

(١) الرسالة الجامعة : ص ٣١٩ • تحقيق مصطفى غالب منشورات صادر بيروت •

بشر ، وتبقى علامة دراكة ما شاء الله تعالى مع الملائكة ،تحضر البقاع الطاهرة، والمساجد العامرة، سارية مع الملائكة ، تتصل بالمؤمنين الاخيار في الدنيا ، وتتراءى لهم في مناماتهم بالبشارة ، والطمأنينة ، وحسن المنقلب ، في المآل • ثم بعد ذلك اذا كان يوم القيامة ، وبلوغ النهاية ، عرجت بها الملائكة الى الجنات والنعيم المقيم والملك الدائم، ولا يذوقون فيها الموت ، الا الموتة الأولى ، ووقاهم ربهم عذاب السموم ، وأخر دعواهم فيها ••• وكذلك الأرواح الساهية ، والنفوس اللاهية يكون خروجها من أجسامها عند نزول الموت بساحتها ، وحلوله بها ، والملائكة باسطوا أيديهم •••وملائكة العذاب تتلقاهم بالنفط والقطران ، والنيران ، وشجرة الزقوم ، وماء الحميم ، والاغلال ، والسلاسل ، والقيود ، •• أو ما شاكل ذلك من أنواع العذاب والهوان » •

وينتقل اخوان الصفاء في حديثهم عن النفس الى تبيان الغاية من رباط النفس الكلية بالجسم الكلي فيقولون (١) : « •• لما كانت الموجودات كلها

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٣ ص ٣٦ •

مرتبة بعضها تحت بعض ، متعلقة في الوجود بالصلة الأولى الذي هو الباري تعالى كتعلق العدد وترتيبه عن الواحد الذي قبل الاثنين ، كما بينا في رسالة المباديء العقلية ، وكانت النفس أحد الموجودات ، وكانت مرتبتها دون العقل وفوق الجسم المطلق ، وكان الجسم فارغا من الاشكال والصور والنقوش والحياة ، قابلا لها بالطبع ، وكانت النفس حية بالذات ، علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، ولم يكن من الحكمة الالهية والعناية الربانية أن تترك النفس فارغة غير مشغولة بضرب من الحكمة ، وأن يكون الجسم ، مع قبوله للتمام ، عاطلا ناقص الحال ، ولم يكن للنفس أن تتحكم على الموجودات التي فوق رتبتها الذي هو العقل الفعال ، عطفت النفس بواجب الحكمة على الجسم المطلق ، ان كان دونها في الرتبة ، فتحكمت فيه بالتحريك له والشكل والتصاوير والنقوش والاصباغ ، ليتم الجسم بذلك ، وتكمل النفس أيضا باخراج ما في قوتها من الحكمة والصنائع الى الفعل والظهور والاظهار، تشبها بحكمة الباري تعالى ، اذ لم يقتصر على علمه بالكائنات قبل كونها حتى أخرجها الى الوجود بعد العدم ، ليظهر الكل للجزء ، ويشاهد الجزء الكل

ويخرج ما في القوة من الحكمة والصنائع الى الفعل والظهور . فمن أجل هذا ربطت النفس الكلية بالجسم الكلي المطلق الذي هو جملة العالم من أعلى فلك المحيط الى منتهى مركز الارض ، وهي سارية في جميع أفلاكه وأركانه ومولداته ، ومدبرة لها ومحركة باذن الله تعالى وتقدس .. » .

هذه صورة موجزة رسمناها عن ماهية النفس عند جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، ولا بد لنا في هذه المناسبة من أن نتعرض الى ما قاله الدكتور عبد الرحمن البدوي المصري الفرعوني حول جماعة اخوان الصفاء في كتابه الطيب الذكر « مذاهب الاسلاميين (١) » حيث قال بالحرف الواحد ما يلي : « .. كثيرا ما نلاحظ ان اخوان الصفا كثيرا ما يسخرون من الاسماعيلية ويسموهم المسبعة فيقولون مثلا : وقد توغلت المسبعة في الكشف عن الاشياء السباعية فظهر لهم منها أشياء عجيبة ... فاذا أضفنا الى هذا الفوارق المذهبية العديدة جدا بين آراء الاسماعيلية وآراء اخوان الصفاء أمكن أن نقرر بكل يقين ان اخوان الصفا

(١) مذاهب الاسلاميين : ص (٢٢٥ - ٢٣٦) .

ليسوا من الاسماعيلية في شيء ، بل لكل منهما مذهب مستقل مباين لمذهب الآخر . ولهذا نعجب كل العجب من أولئك الباحثين الذين أصروا مع ذلك على القول بأن اخوان الصفا من الاسماعيلية أو مذهب كلتا الطائفتين واحدا أو حتى متشابه ، واذا كان بين كلتا الطائفتين بعض التشابه في القول بالعقل وبالنفس الكلية ، فليس هذا التشابه أكبر من التشابه بين الفارابي وبين اخوان الصفا ، بل الأمر على العكس ، فالتشابه بين الفارابي وبين هؤلاء الأخيرين أقوى .. » .

هذا هو الاكتشاف العبقري الكبير الذي طلع به علينا البدوي ، وكم كنا نتمنى وهو الباحث الدارس الذي لم يترك كتابا من كتب الفلاسفة اليونانيين الا ونقله ونسبه الى نفسه ، متبجحا بأنه العالم الفذ الوحيد الذي يعرف عدة لغات ، أقول كم كنا نتمنى لو أنه رغم سرقاته ابتعد عن الخوض في غمار العقائد الباطنية ، التي ثبت بكل تأكيد بأنه تلميذ ضعيف لا يفقه منها شيئا ، فلو تكرم وطالع ما كتبناه عن اخوان الصفاء في كتابنا « في رحاب اخوان الصفاء » حيث أجرينا المطابقة والموافقة حتى في النصوص على أكثر من عشرين

رأيا من آراء هذه الجماعة مع فلاسفة الدعوة الاسماعيلية ، وليس قوله بأن اخوان الصفا يسخرون من الاسماعيلية ويسمونهم المسبعة سوى جهل مطبق لأن الاسماعيلية هم غير المسبعة ولا يمتون اليهم بأية صلة مطلقا (١) ٠

ويكفي للدلالة على أن جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء هم من مؤسسي الحركة الاسماعيلية ومن واضعي اللبنة الأولى في صرحها الفكري الشامخ المطابقات التي استعرضناها في كتابنا المنوه عنه أعلاه ، وحتى يرعوي ويتأمل طويلا هذا البدوي الناقل المحرف ، ولا يبقى مجالا للشك في صحة نسب هذه الجماعة الى الاسماعيلية نورد هذا الرأي بنصه الحرفي ونقابله مع ما ذهب اليه الفيلسوف الاسماعيلي الكرماني وغيره من كبار الدعاة ٠

قال اخوان الصفاء (٢) : « واعلم أن مثل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم

---

(١) في رحاب اخوان الصفاء تأليف مصطفى غالب من منشورات حمد بيروت ـ لبنان ٠ وكتاب الحركات الباطنية في الاسلام لنفس المؤلف من منشورات دار الكاتب العربي بيروت ٠

(٢) رسائل اخوان الصفاء : ج ٤ ص ٥١ ٠

واعتقاد من الآراء كمثل ورق أبيض نقي لم يكتب فيه شيء ، فاذا كتب فيه شيء حقا كان أم باطلا ، فقد شغل المكان ومنع أن يكتب فيه شيء آخر ، ويصعب حكه ومحوه . فهكذا حكم أفكار النفوس ، اذا سبق اليها علم من العلوم واعتقاد من الآراء ، أو عادة من العادات ، تمكن فيها ، حقا كان أو باطلا ، ويصعب قلعها ومحوها .. » .

ويقول أحمد حميد الدين الكرماني (١) :
« ... وهي في الاصل من مبدأ وجودها جاهلة والجهل خلو الذات من حقائق المعلومات ، .. وكونها خالية من صور محسوس ومعقول جملة ، عاطلة منها تجري في خلوها من ذلك مجرى الكاغد الأبيض أو اللوح الغير المكتوب ، أو الحواس في خلوها مما شأنه أن يدرك ، وليس لها معرفة الا بما توجبه طبيعتها من مزاجها مما يتعلق بأمر بدنها .. » .

لاحظ معي أيها الدكتور العلامة القاموسي النحوي وقارن بين القولين ، ألا ترى قول اخوان الصفاء عن النفس الانسانية وخلوها من علم من

---

(١) راحة العقل : ص (٤٥١ ـ ٤٥٢) .

العلوم وتشبيههم لها بذلك الخلو بالورق الابيض النقي الذي لم يكتب فيه شيء ، يطابق وينسجم مع ما ذهب اليه الكرماني بخلوها من صور المحسوس والمعقول ومن تشبيهه لها في ذلك الخلو بالكاغد الأبيض أو اللوح الغير المكتوب ؟!!

أما تقمصك شخصية المصحح للاخطاء ، والمقوم للاعوجاج لبعض المؤلفات فنترك التعليق عليه لمناسبة أخرى كوننا كما تعلم نعتبر اللغة بحد ذاتها وسيلة للشرح والتفهيم والعرض ، وليست غاية ننهد اليها في كتاباتنا ٠!!

العلل والمعلولات :

يرى اخوان الصفاء وخلان الوفاء ان لكل واحد من الموجودات أربع علل : علة فاعلة ، وعلة مصورة ، وعلة متممة ، وعلة هيولانية ، فاذا اعتبرت جميع الموجودات كلها لا بد لها من هذه الاربع العلل : مثال ذلك الكرسي علته الفاعلة النجار ، والهيولانية الخشب ، والصورية التربيع ، والتمامية القعود عليه (١) ٠ وأما الجسم المطلق

(١) الرسالة الجامعة ص ٣٧٤ منشورات دار صادر ٠

فعلته الهيولانية هي الجوهر البسيط الموضوع فيه قوة القبول ، التي بها قبل الطول والعرض والعمق ، فصار بها جسما ، وعلته الفاعلة هي البـــاري جل وعز ، وعلته الصورية العقل ، لأن الطول والعرض والعمق انما هي صورة عقلية ، وعلته التماميـــة هي النفس ، لأن الهيولى من أجلها خلقت ، لكيما تفعل فيه ومنه ما يفعل ويصنع لتتم الهيولى وتكمل النفس • » وهذا يا أخي هو الغرض الاقصـــى في رباط النفس بالهيولى • وأما الهيولى الأولى التي هي جوهر بسيط ، ولها ثلاث علل : الفاعلة ، وهي الباري جل وعز ، والصورية وهي العقل الاول ، والتمامية وهي النفس • وأما النفس فلها علتان ، وهما الباري سبحانه ، والعقل • فالباري علتهـــا الفاعلة المخترعة لها ، والصورية هي العقل الذي يفيض عليها ما تقبله من الباري تعالى • وأمـــا العقل فله علة واحدة ، وهي الباري عز وجل الذي أفاض عليه الوجود والبقاء والتمام والكمال دفعة واحدة ، بلا زمان • وهو العقل الذي أشار اليه بقوله في كتابه على لسان نبيه محمد (صلعم) فقال : « وما أمرنا الا واحدة كلمح البصر » واليه أشار بقوله : « ويسألونك عن الروح قل الروح من

أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » يعني أن الروح الذي راحت الاشياء كلها اليه منصرفة ، فاليه رواحها ومنه عودتها ، منه مبدؤها ، واليه معادها . وقال : « ألا له الخلق والأمر » هي الجواهر الروحانية ، وكلها لله عز وجل ، وبامره قامت وبارادته كانت (١) » .

ويعتقد جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء ان معرفة علل الاشياء ، ومعلولاتها ، علما غامضا صعبا ، لا يكاد يصل اليه ، ولا يطلع عليه ، الا المرتاضون بالعلوم الالهية ، والحكمة الربانية ، المأخوذة عن تلامذة الحكماء الالهيين ، وخلفاء الأنبياء والمرسلين ، تقليدا وايمانا وتسليما ، « وقد ألقينا اليك يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ، في هذا الفصل ، معرفة العلل والمعلولات ، على ما حكته العلماء ، وأخبرت به الحكماء ، من أهل الفلسفة الحكمية ، والشريعة الدينية ، المتفقين في جواباتهم في المعاني الحقيقية . فأعظم المطلوبات من الوقوف على العلل والمعلولات ، هو كيفية الوقوف على معرفة علة العالم التي حدث عنها ،

---

(١) الرسالة الجامعة : ص ٣٧٥ .

وكانت سبب وجوده عنها ، وكيف كان هذا الوجود عن العلة الأولى وظهور الاشياء بعضهامن بعض (٢) ٠

واعلم يا أخي بأن كثيرا ممن ينظرون في مبادىء الأمور ، يظنون ويتوهمون بأن صور المعلومات في علم الباري جل ثناؤه لم تزل مثل صور المصنوعات في أنفس الصناع قبل اخراجها لها ، ووضعها في الهيولى المعروفة في صنائعهم ، وأمثل صور المعقولات في أنفس العقلاء ، وتصورهم لها ، وليس الامر كما ظنوا وتوهموا ٠

وأما الحق من القول في هذا المعنى ، فهو قول من قال : انما ذلك ككون العدد في الواحد ، لأن صور المصنوعات حصلت في أنفس الصناع ، بعد النظر منهم في مصنوعات من تقدمهم وسبقهم الى وصفها ، وعلمها ٠ والسابقون لهم ، المخترعون ، فانما أخذوا ذلك بذكاء نفوسهم ، ولطافة أذهانهم من مفعولات الطبيعة، وبدائع صنعة النفس الكلية، بالتأمل ، والتفكر فيها ٠ وهكذا حكم صور المعقولات ، في أنفس العقلاء ، حصلت فيها بعد

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٧٩ ٠

نظرهم الى المحسوسات ، وتأملهم لها ، فتصورت في عقولهم صور الاكتساب ، بالنظر الى موجودات تقدمت لاكتسابهم اياها ، والباري سبحانه يتنزه عن هذا القياس ، ويتعالى عن هذا المثال ، بل علمه من ذاته ، كما أن العدد من ذات الواحد ، والمثال ينبغي أن يكون مطابقا لما يمثل به في أكثر المعاني وأعمها ، لا أقلها ولا أنقصها ، فمثاله سبحانه الواحد ، والمبروآت كالأعداد • وهذا المثال أكثر مطابقة للحق من غيره من المثالات •

واعلم أن كل موجود تام هو علة لما دونه ،وذلك أن كل موجود تام ، فانه يفيض عنه على ما دونه فيضا تاما ، وأن ذلك الفيض هو من جوهره ، أعني صورته المقدمة التي هي ذاته ، والمثال في ذلك النار ، وما يفيض منها ، على ما حولها ، من الحرارة ، والتسخين للاجسام القريبة منها ، قرب الحاجة اليها ، وهكذا أيضاً يفيض من الماء الترطيب ، والبلل ، على الاجسام القريبة منه قرب الحاجة اليه ، والمجاورة له • والرطوبة هي جوهرية الماء ، وهي صورته المقومة لها ، ومثل ما يفيض عن الشمس ، من النور والضياء ، وهو صورتها ، المقومة لذاتها • وهكذا تفيض من النفس

الحياة على الاجسام ، لأن الحياة جوهرية لهـا ، وهي الصورة المقومة لذاتها .

واعلم أنه ما دام الفيض على المفاض عليه ، متواترا متصلا ، فانه باق على ما هو به ، فان قصر عنه بطل وجوده ، كذلك وجود الاشياء ، عن موجدها متواترة ، خارجة من العدم ، الى الوجود بجوده وفضله ، فلو قبض ذلك الجود لبطل الوجـود . والمثال في ذلك تواتر اتصال الانوار بالهواء ، ما دام متصلا بـه ، متواتر القدوم عليـه ، يضيء ويشرق ، واذا انقبض النور والضياء عنه ، أظلم كما يمنع ضوء الشمس الغمام الذي يحول بينهـا وبين الهواء ، فيعدم النور ، وتحل الظلمة بغيبة الشمس ، كذلك فيض العقل على النفس ،وفيض النفس على الاجسام ، والمـادة متصلـة بالأول ، فالأول من الباري سبحانه . وكما أن النفس اذا فارقت الجسد ، عدم الحياة ، ووقع به المـوت ، وبطلت حركته ، كذلك الاشياء كلها ، لو عدمـت فيض باريها عليها ، ونظره اليها ، نظـرة الارادة الملكوتية المكونة لها ، على ما هي كائنة ، جارية على مراده ، ومشيئته ، وقدرته ، سبحانه لا شريك

له لبطل وجودها ، وهوت في هاوية العدم (١) ٠

واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ، أن ابداع الباري سبحانه ، ليس بتركيب ، ولا تاليف، بل ابداع واختراع ، واخراج من العدم الى الوجود، والمثال في ذلك كلام المتكلم ، وكتابة الكاتب ، فان أحدهما يشبه الابداع ، وهو الكلام ، والآخر يشبه التركيب ، وهو الكتابة ، فمن أجل هذا اذا سكت المتكلم ، بطل وجدان الكلام ، واذا أمسك الكاتب لا يبطل وجدان الكتابة ، فكذلك اذا قبض الباري جوده ، بطلت الموجودات دفعة واحدة ، وبهذا البرهان ، صح أن خلق الخالق المخلوقات ، ابداع واختراع ، وليس بتركيب ولا تاليف ، اذ التركيب والتاليف باق ان أمسك المؤلف عن تاليفه ، ويقطع المركب بعد تركيبه ، كما يمسك الكاتب عن كتابته ، وتبقى صورة حروفه » ٠

ويعتبر اخوان الصفاء العلل والمعلولات التي هي بعرفهم الاصول يتقدم بعضها على بعض ، كتقدم الواحد على الاثنين ، والاثنان متقدم

---

(١) الرسالة الجامعة : ص (٤٨٠ ـ ٤٨١) ٠

الوجود على الثلاثة ، كتقدم النفس على الهيولى ، والثلاثة متقدم الوجود على الاربعة ، كتقدم الهيولى على الطبيعة ، والاربعة متقدم الوجود على الخمسة ، كتقدم الطبيعة على الصورة ، وكون اللطائف البسيطة عن الباري سبحانه دفعة واحدة ، بلا زمان ، ولا مكان ، وشرف بعضها على بعض ، بقرب النسبة اليه والقرب منه • فالباري سبحانه ، علة العقل ، والعقل علة النفس ، والنفس علة الهيولى ، والهيولى علة الصورة المجردة •

وفي مجال البحث عن العلل والمعلولات نلاحظ أن اخوان الصفاء يفردون فصلا خاصا في رسائلهم للسؤال عنها ، وبنفس الوقت يتولون الاجابة بأنفسهم على كل سؤال من الاسئلة التي طرحوها فيقولون : « في ما العلة ؟ هي السبب الموجب لكون شيء آخر • (١)

ما المعلول ؟ هو الذي لكونه سبب من الاسباب •

كم العلل ؟ أربعة أنواع : فاعلية ، وهيولانية ، وصورية ، وتمامية •

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٣ ص ٣٥٨ •

كم المعلول ؟ أربعة أنواع وهي : المصنوعات كلها ، فمنها مصنوعات بشرية حيوانية ، ومنها طبيعية وهي : المعادن ، والنبات ، والحيوان ، ومنها نفسانية بسيطة وهي الافلاك ، والكواكب ، والاركان ، ومنها الروحانية الالهية وهي الهيولى والصورة المجردة والنفس والعقل .

ما الصنعة ؟ هي اخراج الصانع ما في نفسه من الصور ونقشها في الهيولى ، وكل صانع حكيم فله في صنعته غرض ، والغرض هو غاية تسبق في علم العالم أو فكر الصانع ، ومن أجله يفعل ما يفعله ، فاذا بلغ اليه قطع الفعل وأمسك عن العمل .. » .

وبأسلوب علمي عرفاني دقيق يكشف اخوان الصفاء عن العلل والمعلولات ، مستخدمين الامثال، ومقدمين الأدلة والبراهين التي تثبت نظرياتهم وآرائهم المتعلقة بتنظيم العالم العلوي والعالم السفلي . ولا يغرب عن بالهم أن يطبقوا تفاعلات وحركات العالم العلوي بما فيه من أفلاك وكواكب وأجرام على ما يجري في العالم السفلي من الافعال والتأثيرات على الانسان والحيوان والنبات .

ولنستمع اليهم وهم يتحدثون عن علل الاشياء

فيقولون : « وكل هذه الأقاويل قالوها في طلبهم الحكمة والعلة ، وانما لم يقفوا عليها ، لأن نظرهم كان جزئيا ، وبحثهم عن علل الاشياء خصوصيا ، وليس يعلم علل الاشياء الكليات بالنظر الجزئي ، لأن أفعال الباري انما الفرض منها النفع الكلي والصلاح العمومي ، وان كان قد نقص من ذلك ضرر جزئي ومكاره خصوصية ، وليس يعلم علل الاشياء الكليات أحيانا . والمثال في ذلك أحكام الشريعة النبويةوحدوده فيها،وذلك لحكم القصاص في القتل . قال تعالى : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » وان كان موتا وألما للذي يقتص منه ، وكذلك قطع يد السارق منه نفع عمومي وصلاح الكل ، وان كان يناله حزن وألم . وكذلك غروب الشمس وطلوعها ، والامطار كان النفع منها عموما والصلاح كليا ، وان كان قد يعرض لبعض الناس والحيوان والنبات من ذلك ضرر جزئي . وهكذا أيضا قد ينال الانبياء والصالحين وأتباعهم شدائد وجهد وآلام في اظهار الدين وافاضة سن الشريعة في أول الامر .

ولكن لما كان الباري تعالى غرضه في اظهار الدين وسنة الشريعة هو النفع العام وصلاح الكل

من الذين يجيئون من بعدهم الى يوم القيامة ، ولا يحصى عددهم ونفعهم وصلاحهم ، سهل في جنب ذلك وصغر ما نال النبي من أذية المشتركين ،وجهاد الأعداء المخالفين ، وما لاقوه من الحروب والقتال في الغزوات ، وتعب الاسفار ، وقيام الليل ، وصيام النهار ، وأداء الفرائض ، وما فيها من الجهد على النفوس ، والتعب على الابدان •

ولما كان نزول الامر في المنقلب الى الصلاح العمومي والنفع الكلي ، كانت الشدائد والجهد والبلوى في جنبه أمرا صغيرا جزئيا • فعلى هذا المثال والقياس ينبغي أن يعتبر من يريد أن يعترض ما العلة ، وما وجه الحكمة في أكل الحيوانات بعضها بعضا ، ليتبين له الحق والصواب •• » •

اخوان الصفاء ووحدة الأديان :

وجه اخوان الصفاء جل اهتمامهم الى وحدة الأديان فذهبوا الى أن جميع الاديان في جوهرها واحدة ، لأن لها غاية واحدة هي التعلق بالمثل العليا الفاضلة والتشبه بالاله على قدر الطاقة الانسانية • وأفردوا الرسالة الثانية والاربعون من

رسائلهم للتحدث في الآراء والديانات • واعتبروا هذه الرسالة من العلوم الناموسية الالهية والشرعية فقالوا : « اعلم أن النـاس مختلفون في آرائهـم ومذاهبهم ، كما هم مختلفون في صور أبدانهـم ، وأخلاق نفوسهم وأعمالهم وصنائعهم (١) » •

ويردون سبب هذا الاختلاف في الاخلاق الى أربع جهات : احداها من جهة اختلاف تركيب الابـدان ومزاج أخلاطها ، والأخرى من جهة اختلاف ترب البلاد وتغيرات أهويتها والازمان التي تنشأ فيها ، والأخرى من جهة نشوء الانسان على عادات آبائه في سنن دياناتهم ، وعلى عادات من يربيه ويؤدبه ، والأخرى من جهة أشكال الفلك ، ومواضع الكواكب في أصول الولادة ، ومسقط النطفة • ثم يعمدون الى تبيان أجناس الاشياء التي اختلف فيها العلماء الذين أصلوا الآراء والمذاهب ، وفرعـوا منهـا أنواع المقالات والاحكام ، فجعلوا الامور المختلف فيها على ثلاثة أنواع : أولهـا في الترتيب هـي الأمور المحسوسة ، وبعدها الامور المعقولة ،وبعدها الأمور الالهية المبرهنة • أما الامور المحسوسة فهي

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٣ ص ٤٠١ •

صور في الهيولى تدركهـا الحواس المباشرة لها ، وتنفعل عنها • وأما الأمور المعقولة ، فهي باعتقاد اخوان الصفاء ، رسوم تلك المحسوسات التي أدتها الحواس الى القوة المتخيلة ، اذا بقيت مصورة في الأوهام بعد غيبة المحسوسات عن مباشرة الحواس لها • وأما الأمور الالهية المبرهنة فهي أشيـاء لا تدركها الحواس ، ولا تتصورها الاوهام ، ولكن الدليل والبراهين الصادقة باعثة للعقول الى الاقرار بها والقبول لها •

ويؤكدون أن أمثال هذه الأمور معروفة عند العلماء ، بخاصة اقرار الموحدين لله والعارفين به بأن الله تعالى حي ، قادر ، عالم ، حكيم ، خالق ، لا يوصف بالقيام ولا بالقعود ، ولا الدخـول ولا الخروج ، ولا الحركة ولا السكون ، وما شاكل ذلك من الاوصاف مما يوصف بها النفس والعقل الفعال ، والصور المجردة من الهيولى ، وما شاكلها من الجواهر البسيطة المسمين الملائكة والروحانيين• والحواس برأيهم لا تدركها ولا تتصورها الاوهام بوجه من الوجوه ولا سبب من الاسباب •

ويرى اخوان الصفاء أن البراهين هي ميزان

المعقول ، كما أن الكيل والذرع والشاهين موازين الحواس ، وكما ان الناس اذا اختلفوا في حــزر شيء وتخمينه من الاشياء المحسوسة ، رجعوا الى حكم الكيل والذرع ، ورضوا بها ، وارتفع الخلف من بينهم ، فهكذا العقلاء الذين يعرفون البراهين الضرورية ، اذا اختلفوا في حكم شيء من الاشياء التي لا تدرك بالحواس ، ولا تتصور بالأوهام ، رجعوا عند ذلك الى دليل وبرهان ، وما ينتج من المقدمات الضرورية ، وأقروا بها ، وقبلوها ، وان كانت لا تدركها الحواس ، ولا تتصورها الاوهام ، لأنهم يرون الاقرار بالحق أولى من التمــادي في الباطل .

وبعد أن بينــوا الامور المحسوسة والمعقولــة والبرهنة التي يدور الاختلاف حولها ذهبــوا الى أن أسباب اختلاف الناس في ادراك هذه الامــور الثلاثة التي تعلم وتعرف من ثلاث جهات :

احداها دقة المعاني ولطافتها وخفاؤها ،والثانية فنون الطرق المؤدية اليها الاسباب المعينــة علــى ادراكها ، والثالثة تفاوت قوى نفوسهم الداركة لها في الجودة والرداءة ، وهي الاصل والسبب في

اختلافهم في الآراء والمذاهب ، وسائرهـا فـروع عليها ٠

ولا بد لجماعة اخوان الصفاء وهم يبحثون في ماهية ادراك المعلومات مـن أن يشرحوا كيفيـة اختلاف كمية ادراك هذه المعلومات فيقولون : « لما كان الانسان انما هو جملة مجموعة من جسـد جسماني ونفس روحانية ، صـار يقوي نفسـه الروحانية بدرك المعقولات ، كما أن باعضاء جسده الجسماني يعمل الصنائع ، لأن كلية العلوم موضوعة بازاء قوى نفوس جميع الناس ، وذلك لأنه لا يتهيأ لانسان واحد بقوته الجزئية الاستنباط بجميـع العلوم ، والاحتمال لسائر الصنائع ، وذلـك أن لنفسه قوى كثيرة ، وله بكل قوة منهـا أفعـال عجيبة ، كما أن لجسده مفاصل كثيرة وأعضـاء طريفة له ، وله بكل عضو من جسـده حركـات مختلفة » ٠ ثم يذكرون ثمانية أنواع من هـذه القوى الداركة للمعلومات ، منها القوى الحساسة الخمس ، باعتبارها قوى النفس التي ينال بهـا الانسان العلوم والمعارف ، ويأتي بعدها القـوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ ، ثـم القـوة المفكرة التي مسكنها وسط الدماغ ، ثـم القـوة

الحافظة التي مسكنها مؤخرة الدماغ ·

وفي رأيهم ان الناس متفاوتون في الدرجات في هذه القوة بين الجودة والرداءة في ادراكهم المعلومات ، تفاوتا بعيدا ، وهذا التفاوت أحد أسباب اختلافهم في الآراء والمذاهب ، وذلك ان من الناس من يكون حاد البصر يرى الاشياء الصغيرة البعيدة ، ومنهم من يكون دون ذلك ، ومنهم من لا يبصر شيئا البتة · وهكذا تجد حالهم في القوة السامعة ، وذلك ان منهم من يكون جيد السمع يسمع الاصوات الخفية ، ويميز بين النغمات الموزونة والمنزحفة ، ومنهم من يحتاج في ذلك الى مفاعيل العروض ، ومنهم من لا يحس بشيء من ذلك · وعلى هذا القياس يكون حكمهم في سائر قوى حواسهم من الذوق واللمس والشم ، وهكذا حكمهم في ذكاء نفوسهم ، وجودة قرائحهم ، وصفاء أذهانهم ، وذلك أنك تجد كثيرا من الناس من يكون جيد التخيل ، دقيق التمييز ، سريع التصور ، ذكورا حفوظا ، ومنهم من يكون بليدا بطيء الذهن ، أعمى القلب ، ساهي النفس ، فهذا أيضا من أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب ، لأنه اذا اختلفت ادراكاتهم ، اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم

بحسب ذلك • ثم يعمد اخوان الصفاء الى بيان علة اختلاف ادراك القوى العلامة فيذهبون الى أن الاختلاف ليس كامن في ذواتها ، انما من أجل اختلاف أحوالها في ادراكها صور المعلومات ، وأن علة اختلاف أفعالها هو من أجل اختلاف أدواتها واختلاف آلاتها في الجودة والرداءة • باعتبار ان كل عضو من الجسد هو آلة وأداة لقوة من قوى النفس ، وان أعضاء الجسد مختلفة الهيئات المتفاوتة في الجودة والرداءة في بعض الناس أو في بعض الأحايين ، مما أدى الى اختلاف أفعال هذه القوى بمقتضى تلك الاختلافات • ومن تفاوت أفعال هذه القوى يكون أكثر اختلاف الناس في معلوماتهم ، ومنازعات العلماء في آرائهم ومذاهبهم •

وحديث جماعة إخوان الصفاء وخلان الوفاء حول علل اختلاف أهل الديانات والنواميس الالهية في فروعها من السنن والاحكام طويل عريض ، رأينا أن نصرف النظر عنه لضيق المجال ونكتفي بما أوردناه ، مشيرين الى أن اخوان الصفاء يعتبرون أصحاب الناموس هم المعلمون والمؤدبون والأستاذون للبشر كلهم • ومعلمو أصحاب النواميس هم الملائكة • ومعلم الملائكة هو النفس الكلية •ومعلم

النفس الكلية العقل الفعال . والله تعالى معلم الكل . ولا بد لنا من معرفة رأيهم الصريح في بيان علة الاختلافات التي بين أهل الديانات النبوية تعميما للفائدة ، وتبيانا للحقيقة الكامنة خلف تفكيرهم من هذه الناحية ، فهم يرون أن الانبياء ، عليهم السلام ، لا يختلفون فيما يعتقدون من الدين سرا وعلانية ، ولا في شيء منه البتة ، كما قال تعالى : « أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، وقد بينوا انها اثنتا عشرة خصلة يعتقدها الانبياء وأصحاب النواميس الالهية أجمعون لا يختلفون فيها ، كما ذكروا في رسالة النواميس .

وأما الشرائع التي هي أوامر ونواه وأحكام وحدود وسنن ، فهم فيها مختلفون ، كما قال تعالى : « ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » . وقال : « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه » . ثم اعلم ان اختلاف الشرائع ليس بضار ، اذ كان الدين واحدا ، لأن الدين هو طاعة وانقياد للرئيس الآمر فيما يأمر وينهي المرؤوسين بحسب ما يليق بواحد واحد ، وما يرى أنه يصلح له ويصلح فيه ، لأن أوامر أصحاب النواميس ونواهيهم مماثلة لأمر الطبيب الرفيق الشفيق ، فيما أمر العليل من

الحمية من تناول الاشياء الحارة بالطبع ، واجازته شرب المبردات في البلدان الحارة ، وفيما يرى ويأمر به • فمن أجل هذا اختلفت شرائع الانبياء ، عليهم السلام • وكذلك ان اختلفت سنن الدين وقواعد النواميس لأنهم أطباء النفوس ومنجموها، وذلك ان في الادوار والقرانات والألوف قد تعرض للنفوس ، من أهل كل زمان ، أمراض واعلال مختلفة من الاخلاق الرديئة ، والعادات الجائرة ، والآراء الفاسدة من الجهالات المتراكمة ، كما يعرض للاجساد من الامراض والاعلال من تغييرات الزمان والأهوية والأغذية ، فبحسب ذلك يجب أن يكون اختلاف علاجات الاطباء ومداواتهم •

وعلى هذه الصورة الحقانية تكون شرائع الأنبياء واختلاف سننهم بحسب أهل كل زمان وما يليق بهم أمة أمة ، وقرنا قرنا ، مثل شريعة نوح ، عليه السلام ، في زمانه ، وشريعة ابراهيم ، عليه السلام ، بعده في زمان آخر وقوم آخرين ، وشريعة موسى ، عليه السلام ، في زمان آخر وقوم آخرين ، وشريعة المسيح بعده في زمان آخر وقوم آخرين ، وشريعة سيد الأنبياء محمد ، عليه الصلاة والسلام ، والتحية والرضوان ، في زمان آخر وقوم

آخرين . كما قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوصينا اليك » • فهؤلاء باعتقاد جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء كلهم دينهم واحد ، وان كانت شرائعهم مختلفة ، وانما ذكرنا في هذا الفصل من هذه الاشياء ، لأن الذين أنكروا نسخ الشرائع من هذا الباب ، لم يعرفوا الفرق بين الدين والشريعة • وأما الاختلافات التي وقعت بين شريعة واحدة ، بعضهم مع بعض ،كالذي بين طوائف اليهود فيما بينهم ، وبين طوائف النصارى ، وكما بين طوائف المسلمين كذلك ، فهي خمسة أنواع : منها اختلاف في ألفاظ التنزيل كالذي بين القراء ، ومنها اختلاف في المعاني كالذي بين المفسرين ، ومنها اختلاف في أسرار الدين وحقائق معانيه الخفية ، كالذي بين المقلدين والمستبصرين ، ومنها اختلاف في الأئمة الذين هم خلفاء الانبياء كالذي بين الشيعة ، ومنها اختلاف في أحكام الشريعة وسنن الدين كالذي بين الفقهاء •

وفي نهاية نقاشهم حول اختلاف العلماء ، في الآراء والمذاهب ، يعتقدون بأن في هذا الاختلاف فوائد كثيرة ، أيقظت النفوس من نوم الجهالة ،

ونبهتها من السهو والغفلة (١) . ولما كان الانسان لا يخلو من محاسن وفضائل ، ولا ينفك عن مساوىء ورذائل أيضا في أخلاقه وسيرته ومذهبه وأفعاله ، وكان أكثر الناس يتفننون بمحاسنهم ، ويفتخرون بفضائلهم ، ويغضون الطرف عن رذائلهم ، ويسدلون السجف على عيوبهم ومساوئهم ، صار يدعوهم اختلافهم في الآراء والمذاهب الى كشف عيوب بعضهم البعض ، وذكر مساوىء بعضهم لبعض ، ويكون ذلك تنبيها للجميع على ترك الرذائل وحثا لهم على اكتساب الفضائل ، ويكون في ذلك صلاح الكل ، اذا فعلوا ما يؤمرون به ، وتركوا ما يعابون عليه . والاختلاف بين العلماء في أحكام الدين وشرائعه ، وفي فنون المذاهب ، فيه فائدة قصوى اذا لم يعد أمر الدين ضيقا حرجا لا رخصة فيه ولا تأويل ، كما قال تعالى : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » . وقال ، عليه السلام : « ادرأوا الحدود بالشبهات » . لذلك كان اختلاف العلماء ، باعتقاد اخوان الصفاء رحمة، واختلاف أهل الديانات في أمر الدين وسنن أحكامه، حكمة جلية ، لا يعرفها الا المحققون المستبصرون .

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٣ ص ٤٩١ .

وبالرغم من تضارب الاقوال وكثرة الاختلافات في الآراء والمذاهب ، فاخون الصفاء يرون بأن الحق موجود في كل دين من الاديان السماوية ، وعلى كل لسان جار ، وأن الشبهة دخولها على كل انسان جائز ممكن • وليس من شك بأن العقلاء مجبولون على أن لا يترك أحدهم دينا ومذهبا قد نشأ عليه وأنس به ، وقد اعتاد التعبد بطول الزمان علـى سنته ، وأخذه عن آبائه وشيوخه وأستاذيه ، من غير أن يتبين له بطلانه ، وينكشف له عواره ، لذلك لا يرغب أحد منهم في الدخول في دين أو مذهب لم تتبين له صحته ، ولم تصح له حقيقته ، ولا قامت عنده حجته •

واخوان الصفاء ، من هذه الجهة ، لا يلومون الناس على تمسكهم بدين آبائهم ومذاهب أسلافهم • انما يجعلون الحسد أصل العداوة في الدنيا والدين معتمدين على قوله تعالى : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » • وقوله : « ومن شر حاسد اذا حسد » • فالحسد باعتقادهم يخـرب الديار ويوقع الفتن ويورث البغضاء والحقد والظلم والجور • لذلك فهو برأيهم من أكبر العوامـل في اختلاف الآراء والمذاهب •

وبنتيجة البحث والمناقشة والعرض ، يصل اخوان الصفاء الى أن رأيهم ومذهبهم يستغرق ويشمل المذاهب كلها ، ويضم العلوم جميعا • لذلك فهم لا يحملوا حقدا على أحد ، ولا يعادوا علما من العلوم ، أو يهجروا كتابا من الكتب ، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب • فدين الانبياء ، من وجهة نظرهم ، دين واحد ، بالرغم من تباعد الأزمان فيما بينهم ، واختلافات لغاتهم ، وموضوعات شرائعهم ، فهم متفقون على رأي واحد ، ومقصد واحد ، وغرض واحد ، ودين واحد ، فيما يهدفون اليه في دعوتهم بين الأمم الى أمر الآخرة ، وأحوال القيامة وجزاء الاعمال فيها ، ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا • ومهما تعددت الطرق واختلفت المسالك ، فالأديان كلها ، مهما تباينت عقائدها وتنوعت مذاهبها ، تؤدي الى الطريق الواحد المستقيم ، الذي يوصل الانسان الى الكمال المطلق ، والهدف الاكمل •

هذه هي خلاصة نظرية اخوان الصفاء في وحدة الأديان بين أبناء البشر ، وهذا هو دين الحب الانساني الذي بشروا به ودعوا اليه • ومن الطبيعي أن يتأثر بافكارهم هذه كبار العقلاء

والعلماء والمفكرين ، وخاصة عباقرة الفلاسفة من المتصوفين ، وعلى رأسهم الشيخ الاكبر محي الدين ابن عربي الذي نادى بدين الحب ووحدة الوجود ووحدة المعبود ، وأشار الى العلم بأحدية الطريق الأمم • والطريق الأمم ، في اعتقاده ، هو الطريق المستقيم ، الذي تؤدي اليه الاديان كلها •

الأنبياء والرسل عند اخوان الصفاء :

أفرد اخوان الصفاء وخلان الوفاء الرسالة السابعة والاربعون من رسائلهم للبحث في ماهية الناموس الالهي وشرائط النبوة ، وكمية خصال الأنبياء ، الذين اعتبروهم أطباء النفوس ومنجموها • وهم يرون أن النبوة هي أعلى درجة ، وأرفع رتبة ، ينتهي اليها حال البشر مما يلي رتبة الملائكة ، وأن تمامها في ست وأربعين خصلة من فضائل البشرية ، شرحوها وفصلوها في رسائلهم ، وأشاروا الى أنه اذا اجتمعت هذه الخصال في واحد من البشر ، في دور من أدوار القرانات ، في وقت من الزمان ، فان ذلك الشخص هو المبعوث ، وصاحب الزمان ، والامام للناس ما دام حيا •

ويضيفون (١) : « فاذا بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، ودون التنزيل ، ولوح التاويل ، وأحكام الشريعة ، وأوضح المنهاج ، وأقام السنة ، وألف شمل الأمة ، ثم توفي ومضى الى سبيله ، بقيت تلك الخصال في أمته وراثة منه ، وان اجتمعت تلك الخصال في واحد من أمته ، أو جلها ، فهو الذي يصلح أن يكون خليفته في أمته بعد وفاته ، فان لم يتفق أن تجتمع تلك الخصال في واحد ، لكن تكون متفرقة في جماعتهم ، اجتمعت تلك الجماعة على رأي واحد ، وائتلفت قلوبهم على محبة بعضهم بعضا ، وتعاضدت على نصرة الدين ، وحفظ الشريعة ، واقامة السنة ، وحمل الأمة على منهاج الدين ، دامت لهم الدولة في دنياهم ، ووجبت العقبى لهم في أخراهم • وان تفرقت تلك الأمة بعد وفاة نبيها ، واختلفت في منهاج الدين ، تشتت شمل ألفتهم ، وفسد عليهم أمر آخرتهم ، وزالت عنهم دولتهم •

والرياسة في مفهوم اخوان الصفاء على نوعان : جسماني ، وروحاني • فالرياسة الجسمانية ، مثل

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٤ ص ١٢٥ •

رياسة الملوك والجبابرة الذين ليس لهم سلطان الا على الاجسام والاجساد بالقهر والغلبة والجور والظلم ، ويستعبدون الناس ، ويستخدمونهم قهرا في اصلاح أمور الدنيا وشهواتها ، والغرور بلذاتها وأمانيها - وأما الرياسة الروحانية فهي عندهم مثل رياسة أصحاب الشرائع الذين يملكون النفوس والأرواح بالعدل والاحسان ، ويستخدمونها في الملل والشرائع ، لحفظ الشرائع ، واقامة السنن والتعبد بالاخلاص ، والتأله برقة القلوب ،واليقين بنيل الثواب ، والفوز ، والنجاة ، والسعادة في المعاد .

والشريعة الالهية باعتقاد اخوان الصفاء ، جبلة روحانية تبدو من نفس جزئية في جسد بشري بقوة عقلية تفيض عليها من النفس الكلية ، باذن الله تعالى ، في دور من الأدوار والقرانات ، وفي وقت من الأوقات ، لتجذب بها النفوس الجزئية ، وتخلصها من أجساد بشرية متفرقة ، ليفصل بينها يوم القيامة . وحتى تكون فضيلة واضع الشريعة تامة كاملة ، أوجب اخوان الصفاء أن تكون فيه اثنتا عشرة خصلة قد فطر عليها (١) : احداهـا

(١) رسائل اخوان الصفاء : هـ ٤ ص ١٣٠ .

أن يكون تام الاعضاء ، قوية قوائمه على الاعمال التي من شأنها أن تكون بها ومنها ، ومتى هم أن يقضي عملا أتى عليه بسهولة • والثاني : أن يكون جيد الفهم ، سريع التصور لكل ما يقال له ويلقاه ، لفهمه على ما يقصد القائل به على حسب الأمر في نفسه • والثالث : أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ، ولما يسمعه ، ولما يذكره ، وبالجملة لا يكاد ينسى شيئا منها • والرابع : أن يكون فطنا ذكيا ، ذا رأي يكفيه لتبين أدنى دليل ، حتى اذا رأى على شيء أدنى الدليل ، فطن له على الجهة التي يدل عليها الدليل • والخامس : أن يكون حسن العبارة ، يواتيه لسانه على ما في قلبه وضميره ، بأوجز الألفاظ • والسادس : أن يكون محبا للعلم والاستفادة منقادا له سهل القبول ، لا يؤلمه تعب العلم ، ولا يؤذيه الكد الذي يلحقه • والسابع : أن يكون محبا للصدق وحسن المعاملة مقربا لأهله • والثامن : أن يكون غير شره في الاكل والشرب والنكاح ، متجنبا العيب ، مبغضا للذات الكائنة عن هذه • والتاسع : أن يكون كبير النفس، عالي الهمة ، محبا للكرامة ، تكبر نفسه الطبع عن كل ما يشين من الأمور ويشنع ، وتسمو همة نفسه

الى أرفع الأمور رتبة وأعلاها درجة ・ والعاشر : أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده ، زاهدا فيها ・ والحادي عشر : أن يكون محبا للعدل وأهله ، مبغضا للجور والظلم وأهله ، يعطي النصفة لأهلها ، ويرثي لمن حل به الجور ، ويكون مواتيا لكل ما يرى حسنا جميلا عدلا ، غير صعب القيـاد ولا جموح ، وان دعـي الى الجور والقبيح لا يجيب ・ والثاني عشر : أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل، جسورا مقداما ، غير خائف ولا ضعيف النفس ・

ويذهب اخوان الصفاء الى أن أول قاعدة يضعها واضع الشريعة ، ثم يبني عليها سائر ما يعمل في تتميم الشريعة من القول والعمل ، وتكميلها من الأقاويل والأوامر والنواهي ومعاني تأويلهـا ، ومفروضات شرائعه ، وسنن أحكامه ، وتدبير أمته، وسياسة أهل مملكته في أمر الدين والدنيا ، هو أن يرى ويعتقد في نفسه ، علما يقينا ، أن للعالـم بارئا قديما حيا عالما ، حكيما قادرا ، قاهـرا مريدا ، هو علة جميع الموجودات ، ومصرفها بحسب ما يليق بواحد واحد منها ・ والثاني في اعتقادهم أن يرى ويتصوره موجودات عقلية مجردة مـن

الهيولى ، كل واحد منها قائم بنفسه ، متوجه نحو ما نصب له من أمره ، وهم ملائكة الله تعالى وخالص عباده ، بهم تقع المراسلة والوحي والانبياء ، ومن جهتهم يحصل التأييد • والثالث أن يرى ويعتقد وجودات نفسانية مجردة من الابدان تارة ، ومستعملة لها تارة ، ومتعلقة بها تارة ، وأنها نازلة من جثث الحيوانات بحسب ما يليق بواحد واحد منها من ادراك مآربها وتمكنها به •والرابع أن يرى أن بمفارقتها الجثث لا تبطل ذاتها ، وخروجها من الاجساد والحس لا يخرجها من قدرة الباري سبحانه • والخامس أن يرى أن كل واحدة من الموجودات منفردة بذاتها لا يصلحها ولا يفسدها الا ما يتعلق بها من سوء أعمالها ، أو فساد آرائها ، أو رداءة أخلاقها ، أو تراكم جهالاتها • والسادس أن يرى أن الباري تعالى اذ أمر الناس أمرا مكنهم منه وأزاح عللهم فيه ، فمنهم طائع لأمره ، ومنهم راكب نهيه • والسابع أن يجعل لكل صنف من أصناف الطاعات والمعاصي جزاء من الثواب والعقاب ، ويعلم المأمورين والمنهيين عنه أنه اذا ما أتوه على بصيرة أوجب الأجر وقطع العذر • والثامن أن يرى لهم معادا فيه مجازون بما أسلفوا

من خير وشر وعرف ونكر ، وأنه قد جعل الى كل واحد تمهيد مثواه واصلاح مأواه ، فان أحسن فلنفسه ، وان أساء فعليها • والتاسع أن يرى أن الدعاء الى الله تعالى أولى الاعمال بالثواب ، وأرفعها درجة عند المآب • والعاشر أن يرى أن الدعاة الى الله تعالى هم أعلى الناس درجة ، وأرفعهم منزلة ، وأشدهم في الدعاء الى الله تعالى حرصا ، وأكثرهم فيه دربا وأوسعهم علما ، وأكثرهم أمة ، وأعظمهم على الناس نعمة ، وأنطقهم بالصدق ، وألزمهم لمنهاج الحق •

واذا تحققت هذه الآراء في نفس واضع الشريعة ، وتصورها في فكرة كأنه يشاهد يقينا لا شك فيه ، دعا عند ذلك اليها أهل دعوته الذين أرسل اليهم ، ويجتهد في أنبائهم ما قد اعتقده بالتصريح عنها للخواص من أهل دعوته في السر والاعلان ، غير مرموز ولا مكتوم ، ثم يشير اليها ويرمز عنها عند العوام بالألفاظ المشتركة ، والمعاني المحتملة للتأويل بما يعلقها الجمهور وتقبلها نفوسهم • ثم يذكرون خصلة أخرى من خصال واضع الشريعة ، وهي مراعاته لأهل دعوته ، وضرورة التعرف على خبر كل واحد منهم ، من

الصغير الى الكبير ، والذكر والأنثى ، والحر والعبد، والشريف والدنيء ، والعالم والجاهل ، والغني والفقير ، والقوي والضعيف ، والقريب والبعيد ، وذلك ليعرف اسم ونسب كل واحد منهم وصناعته وعمله وتصرفه في حالاته ، وما هو بسبيله من أمر معاشه ، وما هو الغالب عليه من الطبع الجيد والرديء ، والخلق الحسن أو السيء ، والعادات العادلة أو الجائرة ، حتى يثق بهم علما ، ويتبين منازلهم ، ويستعين بكل واحد منهم في العمل المشاكل له ، ويستخدمه في الأمر اللائق به (١) ·

« واعلم أن أول سنة يستنها لهم ويطالبهم باقامتها هي الأمور التي أولها موالاة بعضهم بعضا بسبب حرمة الشريعة ، لتأكيد المودة بينهم ، وتأليف قلوبهم ، ليجتمع بذلك شملهم ، وتتفق كلمتهم ، ويأمرهم بمخالفة من يخالفهم في سنة الشريعة ، ومجانبتهم والبراءة منهم ، وان كانوا ذوي القرابة والأحياء ، كما قال الله ، عز وجل : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » · وقال تعالى : « لا تتولوا

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٤ ص ١٢٤ ·

قوما غضب الله عليهم » • فاذا قاموا بواجب هذه السنة ، وتثبتوا عليها،واستحكمت تلك في نفوسهم، وتعاضدوا على ذلك ، وتناصروا عليه ، صار كلهم عند ذلك كرجل واحد وجسد واحد ونفس واحدة ، وصار واضع الشريعة لهم بمنزلة الرأس من الجسد ، وهم له كسائر الاعضاء ، وتصير قوة نفس واضع الشريعة متصرفة في نفوسهم كتصرف القوة المفكرة في سائر القوى الحساسة ، فيصدرون عند ذلك رأي واحد وقصد واحد وغرض واحد ، بقوة واحدة ، فيغلبون كل من رام غلبتهم ، ويقهرون كل من خالفهم وعاداهم ، وضادهم •• فهلم بنا أيها الأخ ان كنت عازما على طلب صلاح الدين والدنيا أن نقتدي بسنة الشريعة ، ونجتمع مع اخوان لك فضلاء ، وأصدقاء كرام ، ونتعاون على ذلك بمحض النصيحة في الضمير ، وصدق المعاملة في السر والاعلان ، والف المحبة ، توفق ان شاء الله تعالى •• » •

ويتابع اخوان الصفاء تعدادهم لمناقب صاحب الشريعة وخصاله الواجب أن تتوفر فيه من بذل المال والنفس والاهل في سبيل تركيز دعائم الشريعة الى ايجاد السنة الحسنة لأهل دعوته لصلاح الجمهور

وللنفع العام بدون أن يفكر بالمشقة أو بما يحس به بعضهم من تطبيقها ، لأن حسب رأيهم غرض واضع الشريعة ليس اصلاح أمر نفسه ، ولا اصلاح أنصاره وأتباعه الموجودين في زمانه ، بل هدفه اصلاحهم واصلاح من يجيء بعدهم من التابعين ، ومن يجيء بعد أولئك الى يوم القيامة ·

وباعتقاد اخوان الصفاء أن مثل واضع الشريعة مع اخوانه وأنصاره وأتباعه الذين يأتون بعدهم الى يوم القيامة في حكم الشريعة ، كمثل شجرة هو ، وأصحابه وأنصاره أغصانها وقضبانها ، ومن يأتي بعدهم من التابعين لهم كالفروع ، ومن يجيء بعدهم كالورق والنور والزهر والثمر · وهذه الشجرة روحانية تنبت من فوق الى أسفل ، لأن عروقها في السماء مما يلي رتبة الملائكة ، لأن مادتها من هناك تنزل ، وفي مفهومهم ان هذه الشجرة هي شجرة طوبى نبتت من تحت العرش ، وتدلت أغصانها في منازل أهل الجنة وهم يجتنون ثمرها في دائم الأوقات · ويرون أن للكتب الالهية تنزيلات ظاهرة ، وهي الالفاظ المقروءة المسموعة ، ولها تأويلات خفية باطنة ، وهي المعاني المفهومة المعقولة ، وكذلك بالنسبة لواضعي الشريعة

موضوعات عليها وضعوا الشريعة ، التي لها أيضا أحكام ظاهرة جلية ، وأسرار باطنة خفيـــة • وفي استعمال أحكامها الظاهرة صـــلاح للمستعملين في دنياهم ، وفي معرفتهم أسرارها الخفية صلاح لهم في أمر معادهم وآخرتهم ، فمن وفق لفهم معانـــي الكتب الالهية ، وأرشد الى معرفة أسرار موضوعات الشريعة ، واجتهد في العمل بالسنة الحسنة والسير بسيرته العادلة ، فان تلك النفوس هي التي ، اذا فارقت الجسد ، ارتفعت الى رتبة الملائكة التي هي جنات لها •

وقد يتعرض الأنبياء والصالحين وأتباعهـــم الى شدائد وجهد وآلام في اظهار الدين وافاضة سنن الشريعة في أول الأمر • ولكن لما كان الباري تعالى غرضه في اظهار الدين وسنة الشريعة هو النفـــع العام وصلاح الكل من الذين يجيئون بعدهم الى يوم القيامة ، ولا يحصى عددهم ونفعهم وصلاحهم ، سهل في جنب ذلك وصغر ما نال النبي مـــن أذية المشركين (١) • وأول خصال النبوة كما يحددها اخوان الصفاء الوحي ، والانبياء من الملائكـــة ،

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٣ ص ٣٦٦ •

فعليهم اظهار الدعوة في الأمة ، ثم تدوين الكتاب المنزل بالألفاظ الوجيزة ، وتبيين قراءته في الفصاحة ، ثم ايضاح تفسير معانيه ، وبلوغ تأويله ، ووضع السنن المركبة ، ومداواة النفوس المريضة من المذاهب الفاسدة ، والآراء السخيفة ، والعادات الرديئة ، والاعمال السيئة ، والافعال القبيحة • ومن واجب النبي بذل كل امكاناته لنقل هذه النفوس وتشذيبها من تلك العادات وتلك الآراء ، ومحوها عن ضمائرها بالتعرض لعيوبها ، وذلك بالرأي الرصين ، والترغيب في جزيل الثواب ليوم المآب (١) •

ومن خصال النبوة ، في مذهب اخوان الصفاء أيضا ، اجراء السنة في الشريعة ، وايضاح المنهاج في الملة ، وتبيين الحلال والحرام ، وتفصيل الحدود والأحكام في أمور الدنيا جميعا ، ثم التزهيد في الدنيا ، وذم الراغبين فيها ، وتفصيل أحكام الخاص والعام وما بينهما من سائر طبقات الناس ، وما شاكل هذه الخصال الموجودة في الكتب المنزلة من التوراة والانجيل والقرآن وصحف الانبياء

---

(١) المصدر نفسه : ج ٣ ص ٤٩٤ •

عليهم السلام ٠

هذه مجمل آراء اخوان الصفاء وخلان الوفاء في الأنبياء والرسل ، وهي في مفهومها العرفاني لا تختلف عما يذهب اليه بقية المسلمين ، بصورة عامة ، والاسماعيلية بصورة خاصة ٠

البعث والقيامة :

يعتقد اخوان الصفاء وخلان الوفاء ان أشرف العلوم وأفضلها معرفة حقيقة الآخرة وأمر المعاد بعد معرفة البعث والقيامة ، لذلك خصصوا الرسالة الثامنة والثلاثون من رسائلهم للتلويح بطرف من هذا العلم عن طريق الاشارات المرموزة ، والامثال المضروبة ، لأن الاخبار عن حقيقتها كما يرون يدق عن البيان ، ويبعد عن التصور بالأفكار ، والتخيل بالأوهام ، الا لانفس زاكية ، وأرواح طاهرة ، وقلوب واعية ، وآذان سامعة ٠ وأوجبوا على من يود الغوص في هذا العلم أن يعرف النفس والروح وحقيقتهما ، وماهيتهما وتصاريف أمرهما ، باعتبار ان معرفة حقيقة الآخرة وأمر المعاد يأتي بعد معرفة البعث والقيامة ، وبعد معرفة النفس والروح ٠

ولا بد لنا من الاستماع اليهم وهم يعالجون هذه الناحية الهامة في رسالة الجامعة (١) حيث يقولون : « وعلمها هو الغرض الاقصى من رسائلنا كلها ، واليها المنتهى ، وهي الغاية القصوى ، والمنزلة العليا ، وهو الماء المعين ، والعلم اليقين ، والحق المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين ، واليه أشار بقوله سبحانه : « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . ولما رمزنا بهذا العلم الجليل في هذه الرسالة ، ولوحنا به ، وذكرنا طرفا منه ، لم نورده بأجمعه وما وقفنا عليه ، ووصلنا بتوفيق الله وقدرته اليه ،وادخرناه لهذا المكان من هذه الرسالة الجامعة ، لنورد فيها بايضاح البيان ، وحقائق البرهان ، لما قدمناه من الشرط لها ، بتمام القول فيها ، وان ما بين يديها من الرسائل مقدمات ، تشير اليها ، وتدل عليها . فاذا وقفت أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وايانا بروح منه ، على هذا العلم ، فصنه كل الصيانة واعمل فيه بموجب العلم وحق الأمانة ، واياك والخيانة ، بدفعه الى من لا يستحقه ، ووضعه في

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق مصطفى غالب من منشورات صادر صفحة (٤٢٨ - ٤٢٩) .

غير موضعه ، وبذله الى من لا يرغب فيه ، ولا يطلبه فيكون خارجا من جملـة العلمـاء ، الذين يخشون الله حق خشيتـه ، ويلزمـون طاعتـه ، ويعبدونه حـق عبادته ، بوضعهـم الاشيـاء في مواضعها اللائقة بكونها فيها ، ونزولها عليها ، وما على الرسول الا البلاغ المبين ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ، أن هذا العلم هو الغاية ، وبمعرفته يكون الوصول الى النهاية ، اذ هو علم البدء والمعـاد ، والرجـوع والمنقلب ، والدنيا ، والآخرة ، والنشوء والبلى والحشر والنشر ، والعقاب والثواب ، والصراط والميزان ، والجنة والنار ، والملائكة المقربـين ، والشياطين وجنود ابليس اللعين ، أجمعين ، والحق والباطل ، والعالم والجاهل ، والناقص والكامل ، والفاضل والمفضول ، والفائت والحاصل ، والغائب والحاضر ، والربح والخسارة ، والصناعة والتجارة ، والقبض والبسط ، والخفض والرفع ، والظلمة والنور ، والظل والحرور ، والليل والنهار ، وعالم السموات العلى ، وسكان الأرضين السفلى ، وكتاب الأبرار الذي في أعلى عليين ، وكتاب الفجار الذي

في سجين ، وجنة الفردوس ، وشجرة طوبى ، وسدرة المنتهى ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، والملك الذي لا يبلى ، ومعرفة الهاوية وجهنم الثاوية ، والجحيم ، وشرب الماء الحميم ، وأكل الزقوم ، والاجسام المحرقة ، والارواح المغرقة ، والجلود المجددة ، والنفوس المعذبة ، مع العفاريت المردة ، ومالك الغضبان ، وزبانية النيران ، والعذاب المقيم ، ومعرفة الايام الموصوفة ، ذات الاسماء المختلفة ، والأوصاف المؤتلفة ، في الحقائق المتباينة في موضوعات الطرائف ، مثل الآزفة ، والحاقة ، والطامة ، والواقعة ، والقارعة ، والصاخة ، والساعة ، والقيامة ، ويوم البعث والنشور ، وبعثرة ما في القبور ، وتحصيل ما في الصدور ، ويوم التناد ، ووقت المعاد ، ويوم الجزاء ، وبروز الرب لفصل القضاء ، وليلة القدر ، واقتراب الساعة ، وانشقاق القمر ، وتبديل الارض وطي السماء ، والحشر ، وتساقط الكواكب ، وتواتر المصائب ، وغيبة الشمس ، وحيرة النفس ، ومرور الجبال كمر السحاب ، وطي السماء كطي الكتب ، وتفجير البحار ، وغؤور ماء العيون والانهار ، والنفخ في الصور ، ونشر الصور البالية ، وحشر العظام

البالية وقيام الاجساد الثاوية ، وجمع الشتات ، وقيام الاموات ، وحياة المظام والرفات ،والانتباه من طول الرقاد ليوم المعاد ، وحضور الشهداء والنبيين ، والمبلغين رسالات ربهم ... (١) » .

ويلاحظ ان جماعة اخوان الصفاء يسردون كافة الآراء والأوعاد التي جاءت في الكتب السماوية والأحاديث النبوية التي تأتي على ذكر ما ينتظر الانسان يوم الحشر والحساب والبعث والقيامة ، ثم يأتون من بعدها الى أولئك الذين أنكروا أمر البعث ، والقيامة والنشر ، والحشر ، والمحاسبة ، وما تقدم ذكره من وصف ما قدموه من هذه الأمور فيقولون (٢) : « فانما أنكروها وكذبوا بها لشكوك في نفوسهم ، وحيرة في قلوبهم ، والعلة في ذلك طلبهم حقيقة معرفتها ، وكيفيتها ، وأينيتها ، وماهيتها ، وكميتها ، قبل معرفة أنفسهم ، وحقيقة جوهرها ، وكيفية كونها مع الجسد ، ولم ربطت به وقتا ما ، ولم تفارقه وقتا آخر ، ومن أين كان مبدؤها ، والى أين يكون معادها بعد مفارقتها

---

(١) الرسالة الجامعة ص (٤٣٣ - ٤٣٤) .

(٢) المصدر نفسه ص (٤٣٥ - ٤٣٦) .

جسدها ، وهذه المباحث علم غامض وسر لطيف ، ليس لها وصول ولا طريق الا للمهذبين بالعلوم ، والايمان ، والتصديق لقول المخبرين الصادقين عن الله عز وجل ، الذين أخذوا هذا العلم عن الملائكة وحيا والها ما بتأييد من الله عز وجل ° وأما الذين لا يرضون أن يأخذوا هذا العلم تسليما ، وايمانا ، وتصديقا ، ويريدون براهين عقليــة ، وحججــا فلسفية ، فيحتاجون أن تكون لهم نفوس زكيــة ، وأرواح زكية ، وقلوب صافية ، وآذان واعيــة ، وأخلاق طاهرة ، وأن يكونوا قد ارتاضوا بالعلوم، الموجبة لهم الوقوف على صحة هذا الأمر ، وحقيقة هذا السر ، ولذلك بسطنا ما بسطناه ، وقدمنا ما ألقيناه من الرسائل ، المضمنة ما يجب للناظرين والمطلعين عليها ، من العلوم الرياضية التعليمية ، والجسمانية الطبيعيــة ، والعقليــة النفسانية ، لينتبهوا بذلك ، اذا وقفوا عليه ووصلوا بحميد السعي اليه ، من حقائق الكتب النبوية ،والتنزيلات السماوية ، وتركنا القول بالتصريح بهذا الأمر ، ليكون مذكورا في هذه الرسالة ، بقيــام البرهان والدلالة ، وهو وان كان واضح البرهان ، لائح البيان ، فانه لا يصل اليــه ، ولا يعرف كيفيــة

الاطلاع عليه ، الا من كان من أهله ، ووفقه الله بعلمه · ومن كان من غير أهله ، فانه لا يعلمه ، ولا يقف عليه ، ولا يهتدي اليه · فعند ذلك يرجع بالطعن على صاحبه ، وتكفير واضعه · وينسب اليه الكفر والالحاد ، ويرميه بالبهتان والعناد ، كذلك يلعنه الله ويخزيه ، ويجعله من الذين « لا يؤمنون بالآخرة » ولهم الويل وسوء العذاب »·

وبعد هذه المقدمة التمهيدية راحوا يتكلمون على حقائق ما وصفوه ، وبيان ما شرحوه ، بالبيان الشافي ، والقول الكافي ، فقالوا : « اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ، أن لفظة البعث لفظة تدل على معنيين في هذا الامر : أحدهما بعث ايراد، وبعث اصدار بمعنى المبدأ ، والمعاد · وأما المبدأ فهو انبعاث النفس من العقل ، ثم كذلك انبعاث الأشياء بعضها من بعض ، وبدؤها من العقل ، وكلها من الله عز وجل · وبعث الابتداء هو البعث من حد القوة الى حد الفعل ، وهو ايراد الاشياء من العدم الى الوجود بالصور ، وكونها في الهيولى · والبعث الذي هو بمعنى الاصدار والعود هو مفارقة النفس الجسد بعد اتحادها به ، وكونها معه مقارنة لما عملت ، حاملة لما كسبت ، اما الى عذاب مقيم ،

واما الى سرور ونعيم · فهذه معرفة البعث بالوجيز من القول ، الدال على المبدأ والمعاد في هذا المعنى ···

وأما تسمية هذا اليوم بالحاقة ، فانما هو اشارة الى تحقيق علم الله الذي أخبرت به الأنبياء ، ودلت عليه الحكماء ، وصدقت به العلماء المؤمنون، وكذب به الجهال والمنافقون · وأما قولة الواقعة ، فانما عنى به أن في ذلك اليوم يقع القول عليهم بالتكذيب لهم ، وفساد ما كانوا يعتقدونه من الآراء السخيفة ، والمذاهب المخالفة لقول الحق ، العادلين بزخارفهم عن طريق أهل الصدق · وأما قوله الآزفة ، عنى به أن في ذلك اليوم يكون لحوق كل نفس بما عملت ، وتحيط بها سيئتان ما كسبت، والأزوف في لغة العرب هو الرواح ، والزوال من مكان الى مكان · كما يقال أزفت الشمس للغروب، وأزف الوقت ، كذلك الآزفة رفع شيء ووضع شيء غيره في موضعه ، والرواح به ، كذلك يكون الامر في ذلك اليوم ازالة المذاهب السخيفة ، والاعتقادات الرديئة ، والأهوية الضالة ، المضلة ، ونقل أهلها الى العذاب المهين ، والذل المقيم ، ولذلك قال : « اقتربت الساعة وانشق القمر » فاقتراب الساعة

هو المسارعة بمجازاة الانفس ، وانشقاق القمر زوال أمر الدنيا ، اذ كان القمر هو المتولي تدبير عالم الكون والفساد ، وبانشقاقه تبطل هذه الحركة • وأما قوله يوم التناد ، فانه في ذلك اليوم يكون النداء ، كما قال سبحانه : « ينادونهم ألم نكن معكم » ومناداة أصحاب الأعراف ، ومناداة الذين آمنوا يومئذ بعضهم لبعض بالبشرى ،والهناء، والفرح ، والسرور ، ومناداة الذين كفروا بعضهم لبعض بالويل والثبور ، وقولهم : « قد كنا في غفلة من هذا » ونداؤهم بالشهادة على أنفسهم أنهم كانوا هم الظالمين ، وأما قوله يوم النشور ، فهو يوم نشر الاعمال ، وظهورها ، ليراها الفريقان ، ويقف عليها أهل الجمع ، وذلك أن المؤمنين يعرفون أعمال الذين كفروا وتعرض عليهم ، ويقال لهم : أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى ، فيقال لهم : أليست هذه أعمالكم فيعترفون بها ، وتحيط بهم سيئاتهم ، وتعرض أفعال المؤمنين الزكية ، وأعمالهم المرضية، على الكافرين ، فيقال لهم : ألم تكونوا تدعون الى هذا العمل بمثل هذه الاعمال ، وكنتم تستكبرون ؟ فيقولون نعم « لقد جاءت رسل ربنا بالحق » « فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء » •

واعلم يا أخي أن العرض انما هو عرض أعمال العباد ، في ذلك اليوم ، بعضهم على بعض ، ليعرف كل منهم بسيماهم ، وسيماهم ، أعمالهم • والشهداء هم رؤساء المؤمنين ، وهم الأئمة المهديون والخلفاء الراشدون • وأما من توهم أن أعمال العباد تعرض على الله في ذلك اليوم ، حتى يعرفها ، ويقف عليها ويامر وينهي ، فحاشا الله ، وكيف يعرض عليه ما هو محيط به ، وغير خفي عنه ، وانما يكـون العرض على من يحتـاج أن يعرف بالعرض مـا يعرض عليه ، وهذه صفة لا يليق أن يوصف بها الله سبحانه ، وانما العرض في ذلك العرض عرض الأعمال على الخلق : أعمال أهل الطاعة ، وأعمال أهل المعصية ، حتى يقوم بذلك العدل عليهم منهم ، والوزن بالقسط ، فيحيط يومئذ بكل نفس مـا عملت ، وهم لا يظلمون ، ويعرفون أعمالهم ، ولا يغيب عنهم شيء منها ، ولا ينكرونها ، فتكـون أعمال الذين آمنوا جنات لهم ، وغرفا وقصورا ذات روائح طيبة ، ومرأى حسنة ، وروح وريحان، وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت • وكذلك يرى الذين كفروا « أعمالهم حسرات عليهم ومـا هم بخارجين من النار » وأما بعثرة القبور ، في ذلـك

اليوم ، فهي ظهور ما كان ممكنا في قبره ، مغطى بستره ، فعند ذلك يبدو كل مستور • وأما تحصيل ما في الصدور ، فهو خروج ما كانت تجنه صدور المؤمنين ، وتحتوي عليــه قلوبهم ، من المعــارف الحقيقية ، ولا يقدرون على اظهارها ، واقامــة الحجج بها ، لما كانوا يخشونه على أنفسهم من مهانة الكافرين لهم ، وقدرتهم عليهم في دار الدنيا ، فعند ذلك يتحصل ما في صدورهم لهم ومعهــم ، وتتراءى لهم في نفوسهم الزكية أنوار تسعى بين أيديهم وبايمانهم • وكذلك يحصل للذين كفروا أيضا ما كان في صدورهم من التخيلات الفاسدة ، والأوهام الرديئة ، والاعتقادات المضلة ، التــي اطمأنت بها نفوسهم ، وسكنت اليها أرواحهــم ، فتصير ظلمة على ظلمتهم ، وأوزارا على ظهورهم • وأما ليلة القدر ، فهو ما يقدر في ليلة ذلك اليوم من أمور الآخرة ، ووضع الاشياء في مواضعها • وأما انشقاق السماء ، فهو انشقاق ظواهر الأمور ، بحقائق ما كان مخفيا فيها ، وتنزل به ملائكتها ، ويفرق كل أمر حكيم ، كما قال الله عز وجل : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » ففي يــوم القيامة تنشق السماء ، وتفاض الأرزاق على أهلها

دفعة واحدة ، بعد أن كانت تنزل بها الملائكة من أبوابها بقدر معلوم ، ورزق مقسوم • وفي يوم القيامة يكون العطاء الكلي ، وفيض الخيرات والنعم على أهلها ، والبلايا والعقوبات على مستحقها دفعة واحدة • وأما طي السماء في ذلك اليوم كطي الكتاب، فهو ما يكون في ذلك اليوم من طي الأوامر ، والنواهي ، التي كانت في حال قيام الدنيا ، لأن القيامة لا يكون فيها أمر ولا نهي ، انما هو يوم الجزاء والعطايا ، بما كان من الاوامر والنواهي • وكذلك يقال للكتاب اذا قرىء ، وفرغ قارئه من قراءته ، وفهم ما فيه ، قد طوي ، أي زالت أحكامه، فلا يحتاج اليه « كما بدأنا أول خلق نعيده » عود النشأة الأولى • وأما قوله يوم الحشر ، فان العالم في ذلك اليوم يحشرون ، والحشر هو حشر النفوس الجزئية الى النفس الكلية • وأما غيبة الشمس ، فان ذلك يكون متقدما على الساعة وهو من أشراطها ، وعلاماتها ، تغيب من مشرقها وتطلع من مغربها • وأما مرور الجبال كمر السحاب ، فهو مرور الرؤساء بالعلم والحكمة ، كالسحاب المار بالغيث ، والماء الذي به حياة الارض • وأما تفجير البحار ، فهو ظهور علم الرؤساء السبعة وما كان

مستورا في شرائعهم ونواميسهم ، ولذلك قيل : ان البحار السبعة ، وان البحر السابع هو البحر الواسع المحيط • وهو مثل لخاتم الرؤساء • وأما النفخ في الصور ، فهو انبعاث الروح الطاهرة ، في الأشخاص المستعملة ، في الازمان الخالية ، لتحضر وقت يوم القيامة ، وتشاهد الافعال بالحقيقة ، وظهورها الى الفعل ، بعد أن كانت تشاهدها بالقوة • والنفخة الأولى قيام السادس بالبشارة والاعذار ، والانذار • والنفخة الثانية التي بها يكون العالم قياما ينتظرون ظهور السابع • فالسادس أول بالقوة ، والسابع ثان بالفعل ، وبهذه النفخة أيضا يكون قيام الصور البالية ، والاجساد الثاوية ، في عالم الجهالة ، ومذهب الضلالة ، لتجازي بما كسبت • وأما حياة الاموات ، وجمع الشتات ، فهو حياة من كان مات من المؤمنين ، وعباد الله الصالحين ، بغلبة الشياطين ، وقهر الظالمين ، وجمع شتاتهم بعد التفريق ، بالقتل والتفريق والتخريق ، والرمي بالكفر والفسوق ••• وأما حضور الشهداء في ذلك اليوم ، فهو جمع الرسل لقيام الحجة على الذين كفروا ، اذ رأواهم بأشخاصهم التي يعرفونها ، واستكبروا عليها ، ووصلوا

بالأذية اليها ، فعنـد ذلـك يبلس المجرمون ، أي يتحيرون ، وينقطعون عن اقامة الحجة لأنفسهم بما ينجيهم من سوء ما أحاط بهم (١) » .

وينتقل اخوان الصفاء ، بعد هذا الاستعراض التأويلي الرمزي لماهية الاجساد والنفوس ومـا مصيرها بعد الموت والفناء ، وتأكيدهم بأن النفس المؤمنة العارفة يعرج بها بعد الموت الى ملكـوت السموات ، فتظل تسبح حتى تقوم القيامة ، حيث تعود أجسادها اليها لتحاسب ، وأما أنفس الأشرار فبعد موت أجسادها تظل خائفـة وجلة الى يـوم القيامة حيث ترد اليها أجسادها لتحاسب وتجازى. وفي عرف اخوان الصفاء أن معنى القيامة مشتق من قام يقوم قياما ، والهاء فيه للمبالغة ، وهي من قيامة النفس من وقوعها في بلائها . والبعث يعني انبعاثها وانتباههـا مـن نوم غفلتهـا ، ورقـدة جهالتها .

ولم يقف اخوان الصفاء في تحليلهم عند هذا الحد ، بل نراهم يذهبون الى أن بعث الاجساد من

---

(١) الرسالة الجامعة : ص ٤٤٠ .

القبور ، وقيامها من التراب ، يكون عندما ترد اليها النفوس والأرواح التي كانت متعلقة بها ، ومتى تحقق ذلك تحيا وتتحرك وتحس ، ثم تحشر وتحاسب وتجازى ، لأن غرض البعث في مفهومهم هو المجازاة والمكافاة • وعلى هذا يكون البعث والقيامة ، عبارة عن مفارقة النفس الجسد ، اعتمادا على حديث ورد على لسان الرسول (ص) يقول فيه : « من مات فقد قامت قيامته » • لذلك فهم يرون أن موت الجسد ومغادرة النفس له القيامة الصغرى ، أو الحشر الاصغر • أما القيامة الكبرى ، والحشر الاكبر ، فهو عندما تفارق كل النفوس الجزئية الموجودة في عالم الكون والفساد أجسادها ، وتعود النفس الكلية التي كانت تنبثق منها الانفس الجزئية الى مبدعها وخالقها ، فيبطل الوجود كله ما عدا الله سبحانه وتعالى •

القضاء والقدر عند اخوان الصفاء :

منذ أن تفتحت المدارك الانسانية على الحياة وما فيها من غوامض وأسرار ، علوية وسفلية ومشكلة القضاء والقدر بين مد وجذر ، وأخذ ورد • لم يتوصل العلماء والفلاسفة حتى عصرنا

العاضر الى ابراز صورة واضحة لهذه المشكلة الشائكة العويصة المعقدة ٠ والباحث في هذه المشكلة، باعتقادي ، كغريق ابتلعه الموج من جميع نواحيه فغشاه الظلام وسد عليه بصيص النور ، فلا يلمح بريق أمل في الحياة ، أو شعاعا سرمديا مشرقا يتعلق بأهدابه ليخلص من الغرق والموت ٠ لذلك لا نستغرب اذا وجدنا اخوان الصفاء يولون هذه المشكلة اهتمامهم فيخوضون في غمار خضمها الزاخر بالخفايا والاسرار في ضوء الكتب السماوية المنزلة والآراء الفلسفية العلمية التي لا حد لها ولا قرار ٠

ولنستمع اليهم وهم يتساءلون عن القضاء والقدر فيقولون : « فان قال قائل وما القضاء والقدر اللذان جهل هذا المتخلف عن معرفتهما ، وحاد عن محجتهما ، وما معنى هذين الاسمين ؟ فليعلم هذا القائل أن القدر هو تقدير الباري سبحانه الاشياء على الصورة التي هي بها ، أشياء خارجة من العدم الى الوجود ، مرتبة في أماكنها ، لا يعدو بعضها بعضا ، منتظمة انتظام الحكمة على صحة التأليف ، ونظام التركيب لا يسبق بعضها بعضا ، فالأول لا يكون متأخرا ، والمتأخر لا يكون أولا ، فقال : « انا كل شيء خلقناه بقدر » والقدر

هو وضع الشيء في موضعه اللائق به ، وكونه في مكان يحس كونه فيه • والقضاء هو ما أوجب في الحكمة من العناية بالعالم من تكليف الاستطاعة الموجودة فيهم • ومن ذلك قوله : « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » لأن ذلك جعله في قواهم وفطرهم عليه ، وكان تكليفهم لعباده ما سواه من خلقه أشد وأعظم لأنه ليس في طباعهم ولذلك عذبهم لما عدلوا عما في طباعهم ، وما هو مجبول في أصل فطرتهم الى تكليف ما ليس في طبعهم ، ولذلك وجب الحد على من عدل عما هيء له الى تكليف عالم مهيأ له ، ومن ذلك برجم الزاني اذا زنى لأن الشهوة التي ينالها من امرأة غيره وحليلة سواه قد كان ينالها ممن عنده ، ويستغني عن الخروج في ظلمة الليل ، وتسلق الحيطان ، والهتكة والفضيحة ، ثم الرجم بعد ذلك ، والموت الذي هو أشد الاشياء ، وخسارة الدنيا والآخرة ، فقد بان بهذا البرهان أن القضاء هو ما قضاه الله في سابق علمه لأنه لا يكلف خلقه الا ما يجعله في وسعهم وطاقتهم فقال : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » فمتى تكلفوا في غير ما في طباعهم عما نهاهم عنه عذبهم ، لأنهم قد خرجوا من قضائه وحكمه ، وعدلوا عن وصيته فقال :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » فلما عبدوه رضي عنهم بما جمله فيهم اذ كان هو الجاعل ذلك فيهم ، وهو الخير الكلي والجود العلوي ، والخير الكلي لا يصنع الا الخير ، ولا يجود المعروف بالجود الا بالجود ، وهو القضاء الحق • فلما عبدوا غيره خرجوا من قضائه ، فعذبهم ليردهم الى خيره ، فوعدهم ومناهم (١) بلزوم طاعته ، وانها توصلهم الى جنته ، وتجذبهم الى دار كرامته ، وان الخروج من قضائه هو معصيته ، وبه يستوجبون سخطه وعقوبته ، وكان المثل في ذلك كمثل رجل اتخذ مكانا نزها في رأس جبل جعل في أعلى قبته بستانا حسنا ، فيه أشجار مثمرة ، وأزهار نيرة ، وفواكه طيبة ، وماء طيب ، وجواري ، وغلمان ، وأطيار حسان ، وجمع فيه أنواع الطيبات ومجامع اللذات ، وأسفل ذلك الجبل هاوية مظلمة ، ووحوش مفترسة ، ومياه كدرة ، وغيلان وحشة ، ثم قضى أن يسكن ذلك الموضع الطيب المرفوع النير قوم من عبيده وخاصته ، وانهم ما داموا فيه طائعين لأمره كان أصلح لهم وأطيب لعيشهم ، وأدوم لسلامتهم ، فان أحدا منهم ان خالف أمره وارتكب نهيه وسام نعمته ،

---

(١) الرسالة الجامعة : ص (٤٦ ـ ٤٧) •

وبطر رحمته ، هوى في ذلك الموضع الوعر باختيار منه ، أليس واجب في الحكمة أن يدعه في مكانه ، ويزيده من هوانه ، كذلك من آثر عبادة الأصنام والأوثان والنيران على عبادة الرحمن ، وخالف الأنبياء والمرسلين ، وأطاع الشياطين ، أليس من فعل ذلك قد خرج من قضاء الله سبحانه وصار في قضاء نفسه ، وآثر شهواته ، فكان مستوجبا للمقوبة من ربه ٠

فبالبرهان الصادق قد بان ما القضاء والقدر ، والرد على أهل الجبر القائلين بأن أصل الشر من صاحب الخير ، وأنه يريد أن يكون الشر شرا كما أراد أن يكون الخير خيرا ، فيقال لهم : فبأيهما بدأ، والى أيهما دعا ، وعن أيهما نهى ؟ فلا بد لهم أن يقولوا بالخير ، فان قالوا ذلك فقد أوجبوا له أنه غير مريد الشر ، لاهماله الدعاء اليه والحث عليه ، فبالبرهان الصادق بطل قولهم واندحضت حجتهم ٠ فان قالت الثنوية : ان الخير والشر فعلان متضادان غير متفقين وان لهما خالقين متضادين ، غير متفقين، فليعلم هؤلاء المتخلفون عن اتباع الحق بالبرهان الصادق ان فاعل الخير خير كله وان فاعل الشر شر كله ، وان من الخير ابطال الشر ٠ وان الشر يبرر

بما ينتقل طبعه ويكون خيرا متناهيا في الخيرية حتى لا يبقى للشر أثر عنده البتة ، وينتقل طبعه عنه ، وأيضا فان الخير يدعو الى البقاء ، والشر يدعو الى الفناء ، ولما كان البقاء من صفات الأزل القديم ، والفناء من صفات العدم المتلاشي وجب أن يكون صاحب البقاء رب صاحب الفناء ، ومتقدم الوجود عليه فوجبت له الوحدانية ، وزالت الثنوية ، وصار الثاني تابعا له ، ولذلك قيل ان الشر لا أصل له في الابداع من جهة المبدع سبحانه ، وان القضاء والقدر ليسا بشر ، وان المخلوق ليس معانا على فعل الشر ... » .

ويعتقد اخوان الصفاء وخلان الوفاء ان من شرائط الايمان وخصال المؤمنين ، للدلالة على قوة ايمانهم ، الرضاء بالقضاء والقدر ، وتقبل ما يحدث للنفس الانسانية من المقادير برحابة صدر . باعتبار جريان المقادير من موجبات أحكام النجوم ، والقضاء ، بعرفهم ، هو علم الله السابق . بما توجبه أحكام النجوم . » ... ويقال ان الرضا بالقضاء هو أقل أعمال بني آدم التي تصعد الى السماء ، وهو أشرف شرائط الايمان وأفضل خصال المؤمنين . وقد قال الله تعالى : « لقد رضي

الله عن المؤمنين » • وقال : « رضي الله عنهم ورضوا عنه (١) » • ثم يتعرضون لأولئك العارفون بحرمة الناموس من الانبياء والحكماء والمؤمنون الذين رضوا بالمقادير وصبروا عليها مثل سقراط الحكيم وهابيل أحد أبناء آدم عندما قال له أخوه قابيل : لأقتلنك ! قال له هابيل : « لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك ، اني أخاف الله » الى قوله : « أن تبوء باثمي واثمك » • فرضي بقضاء الله الذي هو علمه السابق بالكائنات قبل كونها ، فانقاد للمقادير التي هي موجبات أحكام النجوم طيبة بها نفسه •

وبعد أن يقدموا الأمثلة العديدة على الرضا والقبول بما قدره الباري سبحانه وتعالى يقولون : « واعلم يا أخي أن هذه النفوس ، التي تقدم وصفها ، انما صارت راضية بقضاء الله ، الذي هو علمه السابق في خلقه ، وصبرت بما جرت عليها المقادير المرة التي هي موجبات النجوم ، لما ترجو من الخيرات في المنقلب ، وما تنال من السعادة والروح والراحة بعد المفارقة ، وما يقصر الوصف عنه • • • » •

---

(١) رسائل الصفاء : جـ ٤ ص ٧٣ •

وليس على المؤمن اذا تعرض للبلوى والشدة ، الا التذرع بالصبر ، والرضاء بقبول قضاء الله ، وحكمه الذي لا يرد حامدا شاكرا محسنا الظن به ، طالبا رحمته وعفوه وغفرانه ، مستسلما لأحكامه ، واضعا نصب عينيـه قوله تعـالى : « الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا ان لله وانا اليه راجعون » • وأما الكافر فيكون سيء الظن بالله ، قلق النفس ، جزعا من الشدائد ، ساخطا على المقادير ، ذاما لأسبابه ، آيسا من روح الله ، قنوطا من رحمته ، كما ذكر الله : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به » •

الجنة والنار عند اخوان الصفاء :

يعتبر اخوان الصفاء ان من يعتقد بأن اللـه الرحيم الرؤوف الحنان يعذب الكفار والعصاة في خندق من النار غيظا عليهم وحنقا ، وكلما احترقت أجسادهم وصارت فحما رمادا ، عادت فيها الرطوبة والدم لتحرق مرة ثانية • فهذه الاعتقادات حسب رأيهم ، تؤلم أصحابها ، وتجعلهم يسيئون الظـن برحمة الله وحنانـه • وينفون أن يكون هنـاك شياطين على رأسهم ابليس ، خلقهم الله ليسلطهم

على عباده ، (١) يناصبونهم العداء والبغضاء ، ويفعلون ما يريدون ، وانما هو الانسان ، اذا بلغ أشده ، وعقل الأمور ، وفهم وصايا الله ووعده ، فأهمل أمر الدين ولم يتعظ ، وانصرف الى شهواته وملذاته ، وساءت سيرته وأعماله ، كانت نفسه شيطانية بالقوة . فاذا فارقت جسدها عند الموت صارت شيطانة بالفعل ، وذلك انها سلبت بموتها الحواس الخمس التي كانت تتناول بها ملذاتها الجسمانية ، فصارت ممنوعة عنها ، بعد ما اعتادتها في الماضي من عمرها ، فلا هي تستطيع الرجوع اليها ولا هي تبلغ النعيم لتستغني عنها ، فيكون عذابها في شوقها الى شهواتها الجرمانية ، وتبقى هائمة في الجو دون فلك القمر ، وتطرح بها أمواج الطبيعة في بحر الهيولى الى كل فج عميق ، وهي مشتعلة بنيران شهواتها ، وتكون معذبة بذاتها من وزر سيئاتها وسوء عاداتها الى يوم القيامة الكبرى . فهذه هي جهنم الكفار والأشرار والفساق والكفار .

ومن الآراء الفاسدة كما يرى اخوان الصفاء من يعتقد بأن أهل الجنة أجسادهم لحمية ، وأجسامهم

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٣ ص ٥٢٨ .

طبيعية مثل أجساد أبناء الدنيا ، قابلة للتغيير والاستحالة ، متعرضة للآفات • فاذا تأمل ما وصف الله تعالى في صفات أهل الجنة ، لا يمسهم فيها نصب ، ولا يذوقون فيها الموت ألا الموتة الأولى ، وأنهم خالدون ، وما شاكل هذه الاوصاف المذكورة في القرآن ، التي لا تليق بالأجساد اللحمية والأجسام الطبيعية •

ويرى اخوان الصفاء ان جهنم هي عالم الكون والفساد الذي هو دون فلك القمر ، وأن الجنة هي عالم الارواح وسعة السموات ، وأن أهل جهنم هي النفوس المتعلقة بأجساد الحيوانات التي تنالها الآلام والاوجاع دون سائر الموجودات التي في العالم • وأن أهل الجنة هي النفوس الملكية التي في عالم الافلاك وسعة السموات في روح وريحان ، البريئة من الاوجاع والآلام • والدليل على ذلك قوله تعالى : « انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب » • اشارة الى النفوس المتحدة بالأجسام ذات الطول والعرض والعمق التي دون فلك القمر • وذلك أن تلك النفوس لما جنت هناك الجناية التي ذكرت في قصة آدم ، عليه السلام : « وقيل اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر

ومتاع الى حين » . وقال : « فيها تحيون ، يعني في الارض ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون عند النفخ في الصور » . وانما قيل ان جهنم هي سبع طبقات ، لأن الاجسام التي دون فلك القمر سبعة أنواع : أربعة منها هي الأمهات المستحيلات التي هي الاركان الاربعة وهي : النار ، والهواء ، والماء ، والارض ، وثلاثة هي : المولدات الكائنات الفاسدات التي هي : المعادن والنبات والحيوان .

ويعتقد اخوان الصفاء أن تلك النفوس لما أخرجت من الجنة عالم الأفلاك ، أهبطت الى الارض عالم الكون والفساد الذي دون فلك القمر ، وهي ساكنة في عمق هذه الاجساد ، وغريقة في بحر الهيولى القابل للكون والفساد ، وغائصة في هياكل هذه المتولدات منقطعة فيها قال تعالى : « وقطعناهم في الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » . وقال : « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم » . ثم يشيرون الى أنه قال بأن لها سبعة أبواب لكل باب منها جزء مقسوم ، لأن كل ما يجري في عالم الكون والفساد فبدلائل هذه السبعة السيارة ، وانما قال عليها تسعة عشر ، لأن دلائلها لا تظهر في عالم الكون والفساد الا

بمسيرها في هذه البروج الاثني عشر ، فجملتها تكون تسعة عشر ، وهي التي بها يكون تقلب أحوال الدنيا وما تقتضيه موجبات أحكامها في مواليد هذه الاجساد ، وما يدل عليها مما يصيبهم من الآلام والاوجاع ، والاسقام والامراض ، والاحزان من الجوع والعطش ، والحر والبرد ، والفقر والغنى ، والذل والعبودية ، والغموم والهموم ، ونوائب الحدثان ، وعداوة الاقران ، وحسد الجيران ، وجور السلطان ، ووساوس الشيطان ، ونكبات الزمان ، ومصائب الاخوان ، وخوف الموت ، ووعيد ما بعد الموت المذكور في القرآن ، وما شاكل هذه المصائب التي لا يحصى عددها التي هي النفوس المرهونة بها ما دامت مع هذه الاجساد .

ومن الآراء الفاسدة ، حسب رأي جماعة اخوان الصفاء من يرى أن رب العالمين الغفور الرحيم ، الودود البار ، المحسن الحنان المنان الجواد الكريم الجميل ، يأمر الملائكة بأن يأخذوا الكفار والعصاة ويرموا بهم في خندق من النار ، وكلما احترقت جلودهم ، وصاروا فحما ورمادا ، أعاد فيها

الرطوبة (١) والحياة ليذوقوا العذاب • ومثل من يعتقد أنه يباشر في الجنة مع الأبكار ويلتذ منهـا ويزيل البكارة ، ثم تعود البكارة • ومثل من يرى أنه يشرب الشراب في الجنة ويكون باريه ساقيه • ومثل من يعتقد أنه يتمنى في الجنة الطيور المشوية الحاصلة عنده ، فيتحصل بعد تمنيه في الحال ، ثم ياكل منها حتى الشبع ، ثم بعد ذلك تطير الطيور كما تطير في حال الحياة • ومثل من يعتقـد أن الانسان اذا مات بطلت نفسه ووجودها • ومثـل من لا يرجو الجنة الا بعد خراب السموات وطيها كطي السجل للكتب • ومثل من يعتقد ان الكواكب تتناثر وتتساقط في القيامة • ومثل من يرى ان أعمال الانسان تجعل في كفتين من كفتي الميزان • ومثل من يعتقد سؤال منكر ونكير في القبر من جسد الميت • ومثل من يعتقد ويرى أن في الجحيم تنانين وثعابين وأفاعي ياكلون الفساق ، ويصيرون أحياء بعد ذلك ، وما شاكل هذه من الاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقديها • مع أن جميع ما نطق به الأنبياء عليهم السلام ، من صفة الجنة ونعيم أهلها وعذاب النار والعقاب وأحوال القيامة كلها حق وصـدق

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٣ ص ٦٥ ، ٧٤ •

لا مرية فيها ، ولكن ليس الامر كما يعتقد هؤلاء الظلمة الكفرة ، بل أمر وراء ذلك لا يعلمه الا الله والراسخون في العلم ·

وعلى ضوء ما جاء في أقوال اخوان الصفاء حول الجنة والنار ، يمكننا أن نستنتج أن هذه الجماعة العقلانية ترى ان ما ورد في الكتب المنزلة ، وما جاء على لسان الانبياء والرسل قول صدق لا شك فيه ، ولكن النفوس المتجسدة المؤمنة الخيرة تكون ملائكة بالقوة ، فاذا أصاب تلك الاجساد الموت وفارقت تلك النفوس أجسادها كانت ملائكة بالفعل · وهذا حسب اعتقادهم يعني الجنة · أما النفس المتجسدة الشريرة فهي شياطين بالقوة ، فاذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل · فهذه النفوس الشيطانية بالفعل هي التي توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة ، لتخرجها الى الفعل ، وشياطين الجن برأيهم واعتمادهم على قوله تعالى : « شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » · هي النفوس المتجسدة الشريرة آنست بالأجساد ، وشياطين الجن هي النفوس المفارقة للاجسام المحتجبة عن الابصار ·

ولا بد لنا ما دمنا نبحث حول آراء اخوان

الصفاء في الجنة والنار من الاتيان على ذكر ما ورد في الرسالة الجامعة حول هذا الموضوع المتعلق بمعرفة الباب الذي منه الدخول الى جهنم الكبرى ذات العذاب ، حيث يقولون (١) : « اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ، أن بالوقوف على هذا الفصل ، من هذه الرسالة ، تكون معرفتك بجهنم ، وهو الغرض الاقصى والدرجة العليا في معرفة اللذات والآلام ، ومعرفة أهل النار ، وصفة جهنم ، وكيف تكون صورة أهلها فيها ، وهي من أعظم الاسرار قدرا وأكبرها فخرا ، فصنه واحتفظ به ، ولا تلقه الا الى أهله ، ونريد أن نكتبها بالترجمة التي عرفناك بها ، وألقيناها اليك ، في الصحيفة المفرد سرها ، وكيفية الاطلاع عليها ، لتفوز ان شاء الله تعالى . اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ، أن النار التي قال الله سبحانه فيها « النار يعرضون عليها غدو وعشيا » . وقال : « وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » هي عالم الكون والفساد ، وكل النفوس الجزئية تردها ، فمن تذكر بما ألقي اليه من الحكمة في أمره ،

---

(١) الرسالة الجامعة : ص ١٣٦ - ٣١٧ .

وكيفية انبعاثه ، وهبوطه ، وورووده الى هذا العالم، نجا وفاز ، وفارقها ، وتخلص منها ، وبان عنها الى دار الكرامة ، ومحل النعمة ، ومن غفل عن ذلك بقي جاثيا • والجثو هو الالتصاق بالأرض على الركبتين ، وهو الاخلاد الى الارض والمحبة لها ، وبذلك يكون دوامه فيها بالتشوق والبلى • فأما كيفية صورة أهل النار الكبرى التي هي جهنم العذاب الأليم والذل المقيم ، فهي أن النفوس العاصية المنكرة لباريها المتخلفة عن الطاعة ، المنقطعة عن الطرف الأعلى ، المتكبرة على الانبياء بعلم ويقين ، كما قال : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » فانهم اذا حل الموت بهم ونزلت الملائكة الغلاظ الشداد اليهم ، وهي روحانيات زحل والمريخ ، الى الاشخاص التي هي مستولية على مواليدها ، مخصوصة بنفوسها ،وهي البرزخ المظلم ، وهي أول طبقة جهنم ويتولى عذابها الملائكة المنبثة بأمر الله في الدنيا بالعذاب الأليم للانفس المستخرجة من الصور الانسانية بكمال المعصية والجحود ، والانكار ، ولا تزال تلك الروحانيات تتبع لها تارة بعد تارة بأنواع العذاب، من القتل ، والذبح ، والموت ، الى أن تستكمل

السلوك في السلسلة التي ذكرها الله تعالى بقوله وأمره للملائكة : « خذوه فغلوه • ثم الجحيم صلوه • ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه • انه كان لا يؤمن بالله العظيم » فاذا بلغت الانفس العاصية آخر أذرع السلسلة المعدة لعذابها ، غاصت بها ملائكة العذاب ، وزجرها مالك الغضبان ، فاتحدت بها لطائف العذاب ، وأغدرت بها وصارت ظلمة بمجردها ، تتراءى لها في ذاتها ، كلما لحظت نفسها أشخاص السلسلة التي سلكت فيها ، وحلت بها أمواج جهنم ، مرة ترفعها الى وهج الأثير ، ومرة تهبط بها الى برد الزمهرير ، والشياطين تهوي معها ، والملائكة ترجمها بشهب العذاب ، وترميها دحورا من كل جانب ، ولا يزال ذلك دأبها ما دامت السموات والارض ، فهي موكلة بها أعمالها السيئة التي اكتسبتها مدة صحبتها للاجسام في أيام الحياة الدنيا فهذه معرفة جهنم وصورة أهلها اذا حلوا بها ونزلوا بساحتها نجاك الله أيها الأخ وايانا من عذابها • وجميع اخواننا بمنه ولطفه » •

وينتقل اخوان الصفاء في نهاية المطاف الى وصف النفوس الطائعة والباب الذي تدخل منه الى الجنة التي هي برأيهم الروح والريحان ، وهو

الباب الذي موكل به وعليه رضوان خازن الجنان • فيقولون : « واعلم يا أخي أن النفس الطائعة اذا أكملت طاعتها ، وبلغت نهايتها وانتهت الى غايتها في الصورة الانسانية ، واستحقت بأعمالها الزكية ، وما كسبته من أفعالها صورة ملكية ، والنقلة الى رتبة سماوية ، ونزل الموت بساحتها ، نزلت اليها الملائكة الطيبون بالرأفة والرحمة ، وهي روحانيات الزهرة ، وروحانيات المشتري ، بالرأفة ،والرحمة، والشفقة ، فتلقتها ، وقبلتها بالروح والريحان ، كما تقبل القوابل والدايات لأولاد الملوك بمفاخر أمور الدنيا ، وطيبات روائحها ، ومناديل السندس والاستبراق ، والفرح والبهجة ، والسرور ،وحسن المنقلب في المآل • ثم بعد ذلك اذا كان يوم القيامة، وبلوغ النهاية ، عرجت بها الملائكة الى الجنـــان والنعيم المقيم والملك الدائم ، ولا يذوقون فيهـــا الموت ، الا الموتة الأولى ، ووقاهم ربهـــم عـــذاب السموم •

الافادة والتعليم عند اخوان الصفاء :

جماعة اخوان الصفاء ينظرون للمفيد والمعلم والأستاذ نظرة خاصة تجسد كل معاني التعظيـــم

والتبجيل والاحترام ، كون الاستاذ حسب رأيهم المعلم الحكيم العارف الذي يستطيع أن ينقل النفس الانسانية ، من حد القيام بالقوة الى حد القيام بالفعل ، بما يبذره في هذه النفس المستفيدة من الحكم والمعارف الحقانية ، فتتخلق بأخلاقه الجميلة وآدابه الصحيحة • باعتبار أن النفس الطالبة الافادة والتعليم تتشبه بمعلمها وأستاذها الذي يفيض عليها الخيرات والفضائل،طمعا في اصلاحها، وحرصا في تعليمها ، ورغبة في تأديبها ، وتصفية عنصرها ، وتهذيب جوهرها • فاذا فرغ المعلم من تعليم المستفاد وتثقيفه ، أقبل عند ذلك على عبادة ربه ، وطلب الانفراد والخلوات لمناجاة باريه ، وتمنى اللحوق بأسلافه وأقاربه ، والدخول في زمرة الملائكة •

ويرى اخوان الصفاء أن أصحاب هذه المناقب والصفات هم الانبياء والحكماء والقدماء الربانيين الذين يذرعون الحكمة العرفانية في النفوس الانسانية المستجيبة لما فيه سعادتها وخلودها في عالم الأرواح الحقاني • ولم يغفل اخوان الصفاء أن ينوهرا بواجبات الحكماء نحو تلامذتهم من

المستفيدين من علومهم فقالوا (١) : « وجب على الحكماء ، اذا أرادوا فتح باب الحكمة للمتعلمين ، وكشف الاسرار للمريدين ، أن يروضوهم أولا ، ويهذبوا نفوسهم بالتأديب ، كيما تصفو وتتطهر أخلاقهم ٠٠٠٠ والحكمة كالعروس تريد لها مجلسا خاليا فانها من كنوز الآخرة ٠٠ والحكيم اذا لم يفعل ما هو واجب في الحكمة من رياضة المتعلمين قبل أن يكشف لهم أسرار الحكمة ، فيكون مثله في ذلك كمثل صاحب ملك أذن لقوم بله بالدخول على الملك من غير تأديب ولا ترتيب ، فانه يستحق العقوبة عليه ان فعل ذلك ، فاذا هو فعل ما قد يجب من تأديبهم ثم لم يفعلوا هم ولا قبلوا منه ، فقد برىء الحكيم من اللوم ، ولزمهم الذنب » ٠

ويعتبر اخوان الصفاء ان من أعظم السعادات وأثمنها أن يتفق للمتعلم معلم رشيد عالم ، عارف بحقائق الامور والاشياء ، مؤمن بيوم الحساب ، عالم بأحكام الدين ، بصير بأمور الآخرة ، خبير بأحوال المعاد ، مرشد له اليها ٠ ومن أنحس المناحس حسب رأيهم أن يكون بعكس ذلك ٠ « واعلم ان

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٤ ص ١٣ ٠

المعلم والاستاذ أب لنفسك وسبب لنشوئها وعلة حياتها ، كما ان والدك أب لجسدك ، وكان سببا لوجوده ، وذلك أن والدك أعطاك صورة جسدانية، ومعلمك أعطاك صورة روحانية ، وذلك أن المعلم يغذي نفسك بالعلوم ويربيها بالمعارف ، ويهديها طريق النعيم واللذة والسرور والابدية والراحة السرمدية ، كما ان أباك كان سببا لكون جسدك في دار الدنيا ومربيك ومرشدك الى طلب المعاش فيها التي هي دار الفناء والتغير والسيلان ساعة بساعة، فسل يا أخي ربك أن يوفق لك معلما رشيدا هاديا سديدا ، واشكر الله على نعمائه السابغة » •

ولا بد من الاتيان على ما قاله اخوان الصفاء حول أولئك الذين يدعون العلم ويتدالسون بأهل الدين ، فهؤلاء حسب رأيهم (١) : « لا الفلسفة يعرفونها ، ولا الشريعة يحققونها ، ويدعون مع هذا معرفة حقائق الاشياء ، ويتعاطون النظر في خفيات الامور الغامضة البعيدة ، وهم لا يعرفون أنفسهم التي هي أقرب الاشياء اليهم ، ولا يميزون الأمور الجلية ، ولا يتفكرون في الموجودات الظاهرة

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٤ ص ٥١ •

المدركة بالحواس المشهورة في العقول ، ثم بنظرون في الطفرة والقلفة والجزء الذي لا يتجزأ وما شاكلها من المسائل في الامور المتوهمة التي لا حقيقة لها في الهيولى ، وهم شاكون في الاشياء الظاهرة الجلية ، ويدعون فيها المحالات بالمكابرة في الكلام والحجاج في الجدل ، مثل دعواهم ان قطر المربع مساو لأخذ أضلاعه ، وان النار لا تحرق ، وان شعاع البصر جسم يبلغ في طرفه العين الى فلك الكواكب ، وان علم النجوم باطل ، وما شاكل ذلك من الزور والبهتان • فاحذرهم يا أخي فانهم الدجالون الذلقو الألسن ، العميان القلوب، الشاكون في الحقائق ، الضالون عن الصواب » •

وهؤلاء العلماء الذين ينهجون هذا المنهج كما يقول اخوان الصفاء هم محنة على العلم والعلماء ، كذابون على الانبياء ، ينتحلون ولا يتحققون ، ويدعون ما لا يعرفون ، ويتكلمون فيما لا يحسنون، وما هم الا كما وصفهم رب العالمين : « بل أنتم قوم خصمون » ، يهيمون في أودية ما يتوهمون ويقولون ما لا يفعلون ولا يعلمون •

وهذه الفئة الضالة المضللة ممن يدعون العلم

والمعرفة ينصح اخوان الصفاء بضرورة الابتعاد عنهم باعتبارهم عميان القلوب ، ضالون في اظهار الحقائق ، ومعرفة الدقائق • أما من يتفق له معلم ذكي ، جيد الطبع ، حسن الخلق ، صافي الذهن ، محب للعلم ، طالب للحق ، غير متعصب لرأي من الآراء ، ولا مذهب من المذاهب ، فهناك السعادة القصوى ، والغاية السامية •

وفي رسائل اخوان الصفاء الكثير من الارشادات والرموز للاساتذة والعلماء والمؤدبين والمفيدين ، الذين يعتبرونهم سببا لتنشئة النفوس وعلة لحياتها • لأنهم يغذون النفوس بالعلوم ، ويربونها بالمعارف ، ويهدونها الى طريق السعادة الابدية ، والراحة السرمدية •

اخوان الصفاء والامامة :

اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، كغيرهم من الشيعة ، يعتبرون الامامة المحور الاساسي الذي تدور عليه كافة العقائد • ولكنهم لا يصرحون بهذا المعتقد علانية ، بل يرمزون ويشيرون اليه من طرف خفي ، لا يخفى على الباحث المتعمق بدراسة

المعتقدات الباطنية منذ وجودها ٠

وبالرغم من أن جماعة اخوان الصفاء يرون في رسائلهم ان الامامة هي من احدى أمهات مسائل الخلاف بين العلماء ، قد تاه فيها الخائضون الى حجيج شتى ، وأكثروا فيها القيل والقال ، وبدت بين الخائضين فيها العداوة والبغضاء ، وجرت بين طالبيها الحروب والقتال ، وأبيحت بسببها الاموال والدماء ، لا تزال باقية الى يومنا هذا لم تنفصل ، بل كل يوم يزداد الخائضون المختلفون فيها خلافا على خلاف ، وتتشعب فيها ومنها آراء ومذاهب ، حتى لا يكاد يحصي عددها الا الله ٠ نلاحظ من الناحية الرمزية الباطنية أنهم يعتبرون الامام صورة الصور ، وانه خليفة الله في أرضه ، متحكما على حيواناتها ونباتاتها ومعادنها ، حكم الارباب على خولها ، اذ سجدوا لها بجملتها ، والامامة صورة واحدة ، وان كانت أشخاصها كثيرة ٠والعقل باعتقادهم هو خليفة الله الباطن ، فمن سلط على خلافة الله عدوه دمره الله وذهب عقله بدخول عدوه عليه ، واذا ذهب العقل ، ذهب الدين والعلم ، والمروءة ، والحياء ، والرقابة على العباد في عالم الكون والفساد ٠ والعقل جعله الله تعالى رئيسا

على الفضلاء من خلقه ، الذين هم تحت الامـــر والنهي ، ليجمع شملهم ، ويحفظ نظام أمرهم ، ويراعي تصرف أحوالهم ، لذلك يقولون (١) : « فقد رضينا بالرئيس على جماعـة اخواننـا ، والحكم بيننا ، العقل ٠٠ » ٠

من هذه الافكار يتبين لنا ان اخوان الصفاء لهم آراء ظاهرة في الامامة تنسجم مع ما يذهب اليه بقية الشيعة ، ولكن من الناحية الباطنية ينظرون الى الامام نظرة خاصة ، هي نفس نظرةالاسماعيلية بصورة خاصة الى الامام ، والباطنية بصورة عامة ٠٠٠ وأفردوا في الرسالة الثانية والاربعون مـن رسائلهم ، فعلا تحدثوا فيه حول اختلاف العلماء في الامامة ، فقالوا : « اعلم ان الأمة كلها تقول انه لا بد من امام يكون خليفة لنبيها في أمته بعد وفاته : وذلك لأسباب شتى وخصال عدة : أحدها أن يحفظ الامام الشريعة على الأمة ، ويحيي السنة في الملة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتكون الأمة تصدر عن رأيه (٢) ٠ وقوم آخرون

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٤ ص ١٢٧ ٠

(٢) المصدر نفسه : ج ٣ ص ٢٩٣ ٠

يكونون خلفاءه في سائر البلدان للمسلمين بالنيابة عنه في جباية الخراج ، وأخذ الاعشار والجزية ، وتفريقها على الجند والحاشية ، ليحفظ بهم ثغور المسلمين ، ويحفظ الطرقات من اللصوص والقطاع ، فيمنع الظالم ، ويردع القوي عن الضعيف المظلوم ، وينصف ويعول بين الناس فيما يتعاملون به ، وما شاكل هذه الخصال التي لا بد للمسلمين من قيم بها في ظاهر أمور دنياهم ·

ولا بد لفقهاء المسلمين وعلماؤهم أن يرجعوا اليه عند مشكلاتهم في أمر الدين ، وعند مسائل الخلاف ، فيحكم هو بينهم فيما هم يختلفون من الحكومة في الفقه والاحكام والحدود والقصاص · والصلوات والجمعات والاعياد ، والحج ، والغزو ، وتولية القضاة والعدول ، وفتوى الفقهاء ، ويصدرون كلهم عن رأيه وتدبيره ، وأمره ونهيه ، فهذا هو الاصل المتفق بينهم في حاجتهم الى الامام ·

والناس كما يرى اخوان الصفاء مختلفون على رأيين ومذهبين في من ينبغي أن يكون الامام ، فمنهم من يرى ويعتقد أنه لا ينبغي الا أن يكون افضلهم كلهم بعد نبيها ، وأقربهم اليه نسبة ، ويكون قد

نص عليه ، ومنهم من يرى بخلاف ذلك .

ويلاحظ أن اخوان الصفاء بعد أن يعددوا خصال عديدة ، أوجبوا توفرها بأصحاب الرسالات من الانبياء ، كاجراء السنة في الشريعة ، وايضاح المنهاج في الملة ، وتبيين الحلال والحرام ، وتفصيل الحدود والاحكام في أمور الدنيا جميعا ، وما شاكل هذه المناقب والصفات المعروفة بين أهل العلم ، الموجود وصفها في الكتب المنزلة من التوراة ، والانجيل ، والقرآن ، وصحف الانبياء . يلتفتون الى خصال الملك ، فيذهبون الى أن أولها أخذ البيعة على الاتباع المستجيبين ، وترتيب الخاص والعام مراتبهم ، وجباية الخراج والعشر والجزية من الملة ، وقبول الصلح والمهادنة من الملوك والرؤساء، من الامور المستحبة « ثم اعلم أنه ربما تجتمع هذه الخصال في شخص واحد من البشر ، في وقت من الزمان ، فيكون هو النبي المبعوث وهو الملك ، وربما تكون في شخصين اثنين : أحدهما النبي المبعوث الى تلك الأمة ، والآخر المسلط عليهم .

واعلم انه لا قوام لأحدهم الا بالآخر ، كما قال ملك الفرس أردشيز في وصيته : ان الملك والدين

اخوان توأمان لا قوام لأحدهما الا بالآخر ، وذلك أن الدين اس الملك والملك حارسه ، مما لا اس له مهدوم ، وما لا حافظ له ضائع ، ولا بد للملك من أس ، ولا بد للدين من حارس ·

هذه مجمل آراء اخوان الصفاء في الامامة من الناحية الظاهرة ، أو بالأحرى ، كما يقول به عامة المسلمين ، ولكن الى جانب هذه الآراء لهم آراء باطنية تتعلق بالرموز والاشارات التي تعطي الامامة صفة قدسية روحانية عالية ، فهم يعتبرون الامام بمنزلة العقل الفعال ، أو الموجود الاول ، وذلك في حالة عدم وجود الناطق (النبي) لأنه يحل محله في رتبته ، وفي حال وجود النبي يحمل الامام ، باعتباره صاحب التأويل ، مرتبة النفس الكلية ، أو المنبعث الاول · وهو في عالم الدين ، أو عالم الصنعة النبوية ، الرئيس الروحي الاعلى ، الذي يعتبر وجوده ضروريا ، في كل عصر وزمان ،ليكون حجة الله في أرضه · والضامن لعباده التسرمد والخلود ، لما يبين لهم من الاصول والاحكام ،والحلال والحرام ·

« واعلم بأن كل الناس أشخاص لهذا الانسان

المطلق ، وهو الذي أشرنا اليه انه خليفة الله في أرضه منذ يوم خلق آدم أبو البشر الى يوم القيامة الكبرى ، وهي النفس الكلية الانسانية الموجودة في كل أشخاص الناس ، كما ذكر جل ثناؤه بقوله : « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » كما بينا في رسالة البعث • واعلم يا أخي ، أيدك الله بروح منه ، بأن هذا الانسان المطلق ، الذي قلنا هو خليفة الله في أرضه ، وهو مطبوع على قبـول جميـع الأخلاق البشرية ، وجميع العلوم الانسانيـة ، والصنائع الحكميـة ، هو موجود في كـل وقـت وزمان » •

هذه الرموز والاشـارات الباطنيـة الى امـام العصر ، والرئيس المطلق للجماعة ، تؤكد على أن اخوان الصفاء من واضعي اللبنة الأولى في صرح الدعوة الاسماعيلية الفكري ، شاء الدكتور عبـد الرحمن البدوي أم انحرف ليفتش عن استنتاجات جديدة يستقيها من كتاب الغزالي المستظهري الذي كشف فيه عن خفايا ما يتفاعل في أعماقه مـن تعصب وحقد دفين •

الأكوار والأدوار :

خصص اخوان الصفاء القسم الاكبر من الرسالة السادسة والثلاثون من رسائلهم للتحدث عن الادوار والاكوار فقالوا أن للفلك وأشخاصه ، حول الاركان الاربعة التي هي عالم الكون والفساد، أدوارا كثيرة لا يحصي عددها الا الله تعالى ، ولأدوارها كور ، ولكواكبها في أدوارها أكوارها قرانات • ويحدث في كل دور وكور وقران في عالم الكون والفساد حوادث لا يحصي عدد أجناسها الا الله تعالى • وجعلوا الادوار على خمسة أنواع : أدوار الكواكب السيارة في أفلاك تداويرها • أدوار مراكز أفلاك التداوير في أفلاكها الحاملة • أدوار أفلاكها الحاملة في فلك البروج • أدوار الكواكب الثابتة في فلك البروج • أدوار الفلك المحيط بالكل حول الاركان • وأما الاكوار فهي استئنافاتها في أدوارها ، وعودتها الى مواضعها مرة بعد أخرى •

وأما القرانات فهي اجتماعاتها في درج البروج ودقائقها ، وهي ستة أجناس ، مائة وعشرون نوعا : فمنها واحد وعشرون قرانا خماسية ، وواحد

وثلاثون قرانا سداسية ، وقرن واحد سباعي ، فجملتها مائة وعشرون قرانا نوعية مضروبة في ثلاثمائة وستين درجة ، يكون جملتها ثلاثةوأربعين ألفا ومائتي قران شخصية (١) .

« .. اعلم ان كل الحوادث التي تكون في عالم الكون والفساد هي تابعة لدوران الفلك ، وحادثة عن حركات كواكبه ومسيرها في البروج ، وقرانات بعضها مع بعض ، واتصالاتها باذن الله تعالى . فمن تلك الحوادث ما هو ظاهر جلي لكل انسان ، ومنها ما هو باطن خفي يحتاج في معرفتها الى تأمل وتفكر واعتبار » .

ويرى اخوان الصفاء وخلان الوفاء في رسالة الجامعة أن رسالة الاكوار والادوار واختلاف القرون والاعصار والزمان والدهور ، الغرض منها هو البيان عن كيفية انشاء العالم ، ومبدأه ، وترتيبه وظهوره ، وغايته ، وكيفية فنائه ، وخرابه ، لو انقطعت مواد بقائه عن مبقيه ،فيعدم في الحال ، ويضمحل بلا زمان ، وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب .

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٣ ص ٢٥٣ .

وحول علة كون الليل والنهار يقولون (١) :

« والغرض في هذه الرسالة معرفة تأثيرات الاشخاص العالية في الاشخاص السفلية ، فمن تلك الحركات السريعة القصيرة الزمان ، القريبة لاستئناف دوران الفلك ، المحيط بالكل ، حول الاركان الاربعة ، في كل أربع وعشرين ساعة دورة واحدة ، كقول الله سبحانه : « وكل في فلك يسبحون » وهي التي تكون الليل والنهار ، فبالليل سكون الحيوان وبالنهار حركته ، وذلك أنه اذا طلعت الشمس ، مع دوران الفلك ، على جانب الارض أضاء الهواء بنورها ، وأشرق وجه الارض بضيائها ، وانتبهت أكثر الحيوانات من نومها ، وتحركت بعد سكونها، وترنحت بعد عجمتها وهدوئها ، وانتشرت في طلب معاشها ، وتصرفت في مذاهبها ، وتفتحت أيضا كذلك أكثر أكمام الزهر والنبات ، وفاح نسيم روائحها ، وروحها وريحانها ، وذهب الناس في مطالبهم ، وانتشروا في مآربهم ، وسعوا في حوائجهم، وصارت الدنيا كأنها حيوان واحد ، متحركة ، كاملة الانوار مشرقة الازهار ، كل ذلك بضياء

(١) الرسالة الجامعة : ص ٢٨٢ .

الشمس المشرقة ، الصافية وروحانياتها ، اللطيفة السارية في الاشياء ، كسريان العافية في الاشياء النامية • فاذا غابت الشمس أظلم الهواء واسود الجو ووجه الارض من الظلمة ، واستوحشت أكثر الحيوانات ، ورجعت عن متصرفاتها الى أوطانها وأماكنها ، وانصرف الناس عن أسواقهم الى منازلهم، وعن مواضع أعمالهم الى بيوتهم ، ووقع عليهم النوم والنعاس والكلل بعد الانتشار ، والنشاط في الاعمال ، والسكون بعد الحركة ، والهدوء من الجلبة ، وتكون الدنيا كأنها حيوان نائم أو ميت جامد ، من السكون والهدوء •

واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ، بأنه ما دامت هذه الحركة محفوظة في الفلك ، فهذه الحال موجودة في الحيوان ، فاذا سكنت تلك الحركة، بطل هذا النظام والترتيب • وهذه الحركة من أعظم نعم الله سبحانه على خلقه » • ثم يتحدثون عن بطلان الحركة فيرون أنه ما دامت هذه الحركة محفوظة في الفلك ، فان صورة هذه الكائنات عنها، الحادثة في هذا العالم ، تكون موجودة في الهيولى ، ومتى وقف الفلك عن الدوران فسد النظام ، ويبطل عالم الكون والفساد ، وقد قيل ان ذلك كائن لا

محالة ، اذا بلغت النفس الكلية الى أقصى غرضها ، لأن الغرض هو غاية يسبق اليها الوهم ، ومن أجل البلوغ اليها يفعل الفاعل فعله ، واذا بلغ اليها قطع الفعل .

ولكي تتم معرفة ما يكون عن حركة القمر يقولون : « ومن الحركات السريعة ، القصيرة الزمان ، القريبة الاستئناف ، ما يكون في كل شهر مرتين ، وهي حركة مركز تدوير القمر في الفلك الحاصل ، في كل أربعة عشر يوما مرة واحدة ، في هذا يكون القمر مقبلا بوجهه الممتليء نورا نحو مركز الارض ، يعرف حقيقة ما قلنا أهل الصناعة ، الذين يعرفون علم ما في المجسطي والذي يتبع هذه الحركة ، كان من الحوادث والكائنات في هذا العالم ، أكثره الربو ، والزيادة في الاشياء المبتدئة ، الحادثة من الحيوان والنبات ، والزيادة أيضا في المدود ، والرطوبات ، والأنداء ، يعرف ذلك أهل التجارب ، والعلماء الطبيعيون ، والمتفكرون في الآفاق ، المعتبرون أحوال الموجودات ، وفي النصف الثاني من الشهر يدور هذا المركز في الفلك الحامل مرة أخرى ، ويكون القمر موليا ، بوجهه الممتليء من النور ، عن مركز الارض ، نحو فلك عطارد ،

ويدور القمر في الفلك الحامل مرة واحدة في هذه المدة (١) » ٠

ولمعرفة ما يحدث من هذه الحركة في العالم يرون : « والذي يحدث من هذه الحركة ، في هذه المدة ، في عالم الكون والفساد ، ما دون فلك القمر ، الذبول ، والهزال ، والنقصان في الاشياء النامية ، والنضج ، والجفاف ، واليبس في الاشياء البالغة الى التمام من الحب والثمر ، ويتكون عن هذه الحركة في هذه المدة بعض الجواهر المعدنية ، كالملح ، والكمأة ، وأمثالهما ، وفي هذه المدة يتكون أيضا ، عن هذه الحركة ، بعض الحيوانات ، كالطيور ودود القز ، وزنابير النحل ، وأكثرها تتم خلقتها في أربعة عشر يوما ، وتخرج بعد واحد وعشرين يوما ٠ فهذه المدة هي مقدار مسير القمر من يوم الحضانة الى يوم الخروج من البرج الذي كان فيه الى البرج التاسع ، الذي هو بيت النقلة والسفر ، فتنتقل هذه الحيوانات الكائنة من حال الى حال في هذه المدة ٠ وما دامت هذه الحركة محفوظة في

---

(١) الرسالة الجامعة : ص (٢٨٤ - ٢٨٥) ٠

الفلك ، تصورت هذه الكائنات وكانت موجودة في الهيولى في هذا العالم » ٠

ومن الطبيعي ان نتيجة هذه الحركة تشير الى معرفة مبلغ أعمار ما يحدث عنهـا من الحيوانات لذلك يرى اخوان الصفاء ان كل الكائنات عن هذه الحركة ، من الحيوانات والنبات ، فمنها ما هـي طويلة البقاء ، ومنها ما هي قصيرة المدة ، ولكن أطولها بقاء لا يتجاوز مائة وعشرين شهرا ،وقصيرة المدة ما دون ذلك ٠ وعلة نهاية بنية أشخاص هذا النوع في الهيولى ، هذا المقدار من الزمان ، هو أن علة حدوثها حركة القمر في فلك البروج ، المقسوم بثلاثمائة وستين درجة ، وثماني وعشرين منزلة لدورة واحدة ٠ وذلك أن القمر اذا كان في برج من الابراج ، وفي منزلة من المنازل ، يوم حضانة الطير ، فانه يوم يخرج الفروخ ، أو الفرخ ، يكون في منزل العشرين من ذلك المنزل ، في البرج التاسع من ذلك البرج ، وقد قطع مائتين وأربعين درجة من الفلك ، وبقي له مائة وعشرون درجة الى أن يعود الى الدرجة التي كان فيها يوم ابتداء الحضانة، فيستأنف العمر في الدنيا لكل درجة شهرا ، وهذا هو العمر الطبيعي للحيوان الحادث من هذه الحركة،

وأما ما يهلك قبل هذه المدة ، ويعيش بعد جواز هذا المقدار ، فذلك لاسباب وعلل وأعراض يطول شرحها (١) .

أما أعمار الصور الانسانية واللاحقة بها من الصور الحيوانيـة فيقولون (٢) : « وأما أمر الانسان ، فذلك أنه اذا سقطت النطفة في الرحم من جنس البشر ، أو بعض الحيوانات ، التي تلد لتسعة أشهر ، أو اكثر ، أو أقل ، فهذا الجنس من الحيوان لاحق في جميع أحواله بأحوال الانسان ، مقارن له ، فلا بد أن تكون الشمس ، تلك الساعة ، في درجة من برج الفلك ، فاذا كان الشهر التاسع ، تكون الشمس قد قطعت بسيرها ثمانية أبراج ، وقد استعرفت طبائع البروج المثلثات ، وبلغت الى أول البرج التاسع ، بيت السفر والنقلة ، فيوجب ذلك انتقال المولود من مكان الى مكان ، ومن حال الى حال ، وتكون الشمس قد سارت في فلك البروج ، من يوم مسقط النطفة الى ذلك اليوم ، مائتين وأربعين درجة ، وبقي لها مائة وعشرون درجة ،

---

(١) الرسالة الجامعة : ص ٢٨٦ .
(٢) المصدر نفسه : ص ٢٨٧ .

الى أن تعود الى الدرجة التي كانت فيها ، يوم مسقط النطفة • فجعل نهاية لبقاء أشخاص من هذا النوع، وعمرها الطبيعي ، لكل درجة سنة ، وهي التي بقيت لها ، تسير فيها مائة وعشرين درجة ، الى أن تعود الى الدرجة التي كانت فيها يوم مسقط النطفة، فان زاد أو نقص فلأسباب وعلل • وعلى هذا القياس يعتبر حال كل مولود من أنواع الحيوان ، فيكون عن حركة شخص من الاشخاص الفلكية » •

ولكي نكون فكرة واضحة عما يحدث في العالم عن حركة الشمس باعتبار حركتها من الحركات السريعة ، القصيرة الزمان ، في كل سنة مرة واحدة، وهي مثل حركة فلك تدوير الزهرة وعطارد في فلك البروج ، تارة في البروج الشمالية ، وتارة في الجنوبية ، وتارة في المستقيمة الطلوع ، وتارة في المعوجة ، وتارة في النارية ، وتارة في الترابية ، وتارة في الهوائية ، وتارة في المائية ، وتارة صاعدة، وتارة هابطة ، وتارة في شرفها ، وتارة في هبوطها ، وتارة في بيوتها وتارة في وبالها ، وتارة في ذروتها ، وتارة في حضيضها ، وتارة مسرعة ، وتارة بطيئة ، وتارة عند رؤوس جو زهراتها ، وتارة عند أذنابها، وتارة متيامنة بعضها مع بعض ، وتارة متياسرة ،

وتارة شرقية ، وتارة غربية ، وتارة متناظرة ، وتارة ساقطة ، وتارة خالية ، وتارة في الاوتاد ، وتارة فيما يليها ، وتارة زائلة عن الاوتاد ، وتارة في البروج المنقلبة ، وتارة في الثالثة ، وتارة في المتجسدة ، وما شاكل هذه الحالات (١) ٠

والذي يحدث عن هذه الحركة ، في هذه المدة ، في هذا العالم ، عن أحوال هذه الكواكب ، من الصور المختلفة ، والحالات المتغايرة ، أشياء لا يحيط بعلمها وكنهها الا الله سبحانه وتعالى ،خالقها ومبدعها ٠ ولكن لا بد لنا من الاتيان على ما يحدث في العالم اذا نزلت الشمس برج الحمل ٠ وفي هذه الحالة نستمع الى اخوان الصفاء ماذا يقولون : « اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه أنه ، اذا نزلت الشمس أول دقيقة من برج الحمل ، استوى الليل والنهار في الأقاليم ، واعتدل الزمان ، وطاب الهواء ، وهب النسيم ، وذابت الثلوج ، وجرت الأودية ، ومدت الانهار ، ونبعت العيون ، وارتفعت الرطوبات الى أعلى فروع الاشجار ، ونبت العشب ، ٠٠٠ وصارت الدنيا كأنها جارية

(١) الرسالة الجامعة : ص ٢٨٨ ٠

شابة ، فلا يزال ذلك حال الدنيا ، حتى تبلـغ الشمس آخر الجوزاء (١) » ٠

وهذا كما يرى اخوان الصفاء دليل ومثال من أمور الدنيا ، وما يجري فيها ، ويحدث من هـذه الحركة ، لأمور خفية ، وأسرار كامنة ، لا يعلمها الا الله ، والراسخون في العلم ٠ وذلك أن أمور الدنيا مبنية على أمور الآخرة وكلها مثالات ودلالات على دين الله سبحانه وحكمته،وخفي سره ،وموضع أمره ونهيه ، لذلك يذكرون من الحكمة الخفية ، المستورة بهذه المثالات الساكنة تحت هذه الحركات، ما يكون به انتباه نفس الجاهل من نوم سكرتها ، فيقولون (٢) : « اعلم يا أخي أيدك الله وايانـا بروح منه ، أن الشمس هي آية الله في السموات والأرض ، وبها صلاح العالم ، وهي الباعثـة في العالم روح الحياة ٠ ولما كان الانسان عالما صغيرا ، وجب بالحكمة أن يكون فيه مثال لما في العالم الكبير، وكان القلب من الانسان بمنزلة الشمس في عالـم الافلاك ، وذلك أنها متوسطة للافلاك ، ومركزها

---

(١) الرسالة الجامعة : ص ٢٨٩ ٠

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٩٠ ٠

القطب ، كذلــك القلــب مركزه وسط الجســم الانساني . فكما أن نزول الشمس في بيت شرفها وسلامتها من الآفات ، أعني الكسوف ، والهبوط ، وما يعرف المنجمون ، وما هو مذكور في المجسطي وغيره ، تكون سلامة العالم ، وحسن حاله ، واعتدال نظامه ، واستقامة أقسامه ، فكذلك القلب ، اذا سلم من الآفات ، والعوارض المهلكات ، استقــام أمر الجسد ، وتمت أوصاله ، وانتظمت أعماله .

ولما كان في حال التفريد الانسان وحده مركبا على مثال تركيب العالم الكبير ، وجب أن يكون بالجمع العالم كله انسانا كبيرا ، وواحدا أيضا بالاطلاق .

واذا كان العالم كله ، أعني جميع الصور الانسانية القابلة للامر والنهي ، بمنزلة انسان واحد ، فيجب أن يكون له وفيه أعضاء فاضلة شريفة .... وما يكون به الصلاح والحياة للجسد من الحواس الخفية ، ويكون له أعضــاء ظــاهرة يدرك بهــا الحــواس المحسوسات المشاهدة ... ويكون له أيضا صنائع جليلة يظهرها صناع حكماء ، ورؤساء علمــاء ، ويكون فيه عباد وزهاد ، وصالحون . فلما كان ذلك كذلك بالبرهان من وجود الرؤساء في عالم الافلاك العالية ، والكواكب الساميــة ، مثــل الشمس ،

والقمر ، والكواكب الخمسة المتحركة والسبعة الثابتة ، وما به قوام أمر الافلاك ، وانتظام عالم السموات ، وما يعرض لها وفيها من العوارض ، والأمور الخفية ، التي بعضها يدركه البصر بدقة النظر،ومنها ما يدركه بالقياس الصحيح ،والبرهان الصادق ، ومنها ما لا يعلمه الا الله تعالى ، ولا يصل الى معرفة أفهام المخلوقين ، الا من أطلعه الله عليه ، وأيده بالوحي ، مثل الانبياء والمرسلين ، والأمناء الصادقين ، ... فبالبرهان قد بان أن الرؤساء في عالم الافلاك موجودون ، وما ينبعث منها من القوى الروحانية ، والانفس السارية في الاركان ، والأمهات ، والمواليد ، كل بحسب ما جعلته فيه ، وأمدته به النفس الكلية ، بالمشيئة الالهية ،والحكمة الربانية ، وأن هذه الارواح المدبرة للعالم بما به ، الموكلة بانشاء مواليده ، ونظام حركاته ،واعتدال أقسامه ، وصحة نسبته ، هي ملائكة الله عز وجل وجنوده ... » .

التبني الروحي عند اخوان الصفاء :

يستدل من الغوص في أعماق مصنفات جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء التي ظهرت الى عالم

الوجود وتداولتها أيدي العلماء أن هذه الجماعة قد وقفت انتاجها ووجودهــا العقلاني على نشر المحبة والاخاء الروحي المنطلق من أعمــاق النفس الانسانية الناهدة الى الخلود والبقاء في عالم تسوده الألفة والمحبة ، وتسيطر على مجتمعاته الانظمــة الحقة ، والقوانين التربوية الدينيــة والخلقيــة والعقلانية الخالصة من أدران الشهوات والتعصب والحقد والضغينة •

لذلك قالوا بضرورة التبني الروحــي والاخاء العقلاني على أسس منبثقة من صميم التعاليــم الحقانية والفلسفية التي أوجدوها في عالمهم الفاضل المثالي ، وأعطوا هذه النظرية الفاعلة في مجتمعهم أهمية خاصة باعتبارها من الدعائم المتينة التــي يرتكز عليها تنظيمهم الأخوي ، الهادف الى المساواة، والمحبة ، والعدالة الاجتماعية ، ولنستمع اليهم وهم يتحدثون عن الأبوة النفسانية فيقولون (١) : « فينبغي لاخواننا ، ممن قــد رزق المــال والعلم جميعا ، أن يؤدي شكر ما أنعم الله ، جل وعز ، به عليه بأن يضم اليه أخا من اخوانه ممن قــد

---

(١) رسائل اخوان الصفاء جـ ٤ ص ٥٣ •

حرمهما جميعا ، ويواسيه من فضل ما آتاه الله تعالى من المال ، ليقيم به حياة جسده في دار الدنيا ، ويرفده ويعلمه من علمه لتحيا به نفسه للبقاء في دار الآخرة ، فان ذلك من أقرب القربات الى الله ، وأبلغ لطلب مرضاته ٠

ولا ينبغي له أن يمن عليه بما ينفق عليه من المال ولا يستحقره ، ويعلم أن الذي حرم أخاه هو الذي أعطاه ، وكما أنه لا يمن على ابن له جسداني فيما يربيه وينفقه عليه من ماله ، ويورثه ما جمعه من المال بعد وفاته ، كذلك لا يجب أن يمن على ابنه النفساني لأنه ان كان ذلك ابنه الجسداني ، فهذا ابنه النفساني ، كما روي أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال لعلي ، عليه السلام ، « أنا وأنت أبوا هذه الأمة » وقال ، صلى الله عليه وسلم : « المؤمن أخو المؤمن من أبيه وأمه » وقال ابراهيم ، عليه السلام : « فمن تبعني فانه مني » وقال ، عز وجل ، لنوح ، عليه السلام ، حيث قال : « ان ابني من أهلي » قال « انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح » وقال تعالى : « فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » فبين أن النسب الجسداني لا ينفع في الآخرة ٠

وبهذا المعنى قال المسيح ، عليه السلام ، للحواريين : « جئت من عند أبي وأبيكم » وقال الله تعالى : « ملة أبيكم ابراهيم » فهذه الأبوة نفسانية لا ينقطع نسبها كما قال النبي ، عليه السلام : « كل نسب ينقطع يوم القيامة الا نسبي » وقال : « يا بني هاشم لا يأتيني الناس يوم القيامة بأعمالهم ، وتأتوني بانسابكم ، فاني لا أغني عنكم الله شيئا » • انما أراد النسبة الجسدانية ، لأنها تنقطع اذا اضمحلت الاجسام وبقيت النسبة النفسانية ، لأن جواهر النفوس باقية بعد فراق الأجساد ، وان كان يظن أن ابنه الجسداني يحيي ذكره بعد موته ، فهذا أيضا ، ان عاش ، أحيا ذكره في مجلس العلماء ومحاضر أهل الخير اذا نشر علمه، ويتوجه اليه ويترحم عليه كلما ذكره ، كما نذكر نحن معلمينا وأستاذينا أكثر مما نذكر آباءنا الجسدانيين ، ونترحم على آبائنا • وان كان يظن أن ذلك الابن الجسداني ربما ينفعه اذا كبر ، ويعينه على أمور الدنيا ، فهذا ربما بلغ في العلم والحكمة والخير والمرتبة عند الله تعالى أن يشفع بعلمه لمعلمه ، فينجو بشفاعته وهو لا يدري ، كما ذكر الله تعالى بقوله : « آباؤكم وأبناءكم لا تدرون

أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله » •

ويظهر من هذه الآراء ان اخوان الصفاء اعتمدوا في أفكارهم عن التبني الروحي على أقوال الرسل والانبياء، وعلى ما ورد في الكتب السماوية • فطبقوها على أنفسهم واخوانهم ، ثم جاء من بعدهم دعاة الاسماعيلية الأول فبلوروا هذه الافكار ، وجسدوها في مجتمعاتهم • حتى ان أئمة الدعوة في أوامرهم وارشاداتهم وتعليماتهم يخاطبون الأتباع بقولهم : « أبنائي الروحيين » ويضيفون : « ان آباكم الروحي يمنحكم بركاته الأبوية والأمومية » •

والأبوة الروحانية ، في رأي اخوان الصفاء والاسماعيلية ، لا ينقطع نسبها بل يظل سرمدا الى أبد الآبدين • أما النسبة الجسدانية ، فيرون أنها تنقطع اذا اضمحلت الاجسام • أما جواهر النفوس فتبقى خالدة بعد فراق الاجساد •

المدينة الفاضلة عند اخوان الصفاء :

لا بد لمن يدرس جماعة اخوان الصفاء ، دراسة صحيحة وافية ، في ضوء الحقيقة والواقع العقلي والتجرد العلمي ، ناهجا المنهج الحديث في البحث

والتنقيب ، لمعرفة العلل والاسباب التي اشتركت وتضافرت على تكوين عقلية هذه الجماعة ، وتحديد أهدافها ، مبتعدا عن العاطفة والتعصب ، من الاعتراف بأن جماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، ليست سوى مجموعة من المفكرين ،وصفوة مختارة من الفلاسفة وجهابذة العلماء ، حشدوا كل امكانياتهم الفكرية والفلسفية ، للقضاء على دولة بني العباس ، ليشيدوا على أنقاضها دولة جديدة ـ دولة أهل الخير ـ ذات نظام اجتماعي روحاني سليم ، يهدف الى ايجاد مذهب اجتماعي ، وأخوية فلسفية دينية اسلامية ، وتأليف كتلة اسلامية قوية ، موحدة الاهداف والكلمة .

ولقد كان للافكار التي بذر بذورها تلامذة هذه الجماعة ، فيما بعد ، بين طبقات المسلمين وغير المسلمين ، تأثير كبير على الآداب والفلسفة الاسلامية ، وحياة المجتمع الاسلامي في الأعصر العباسية ، فقلبت حياته رأسا على عقب ، وأحدثت بين طبقاته من التغيير ، ما لا تزال آثاره باقية الى هذا اليوم .

ومن البديهي أن ينبري اخوان الصفاء لمعالجة مشكلة « المدينة الفاضلة » أو مدينة أهل الخير ،

في رسائلهم فقالوا : « وينبغي لنا أيها الأخ بعد اجتماعنا على الشرائط التي تقدمت من صفوة الاخوان أن نتعاون ونجمع قوة أجسادنا ونجعلها قوة واحدة ، ونرتب تدبير نفوسنا تدبيرا واحدا ، ونبني مدينة فاضلة روحانية ، ويكون بناء هذه المدينة في مملكة صاحب الناموس الاكبر الذي يملك النفوس والاجساد ، لأن من ملك النفوس ملك الأجساد ، ومن لم يملك النفوس لم يملك الاجساد·

وينبغي أن يكون أهل هذه المدينة قوما أخيارا حكماء فضلاء مستبصرين بأمور النفوس وحالاتها ، وما يتبع ذلك من أمور الاجساد وحالاتها · وينبغي أن يكون لأهل المدينة سيرة جميلة كريمة حسنة يتعاملون بها فيما بينهم ، وأن يكون لهم سيرة أخرى يعاملون بها أهل المدن الجائرة ، ولا ينبغي أن يكون بناء هذه المدينة في الارض حيث تكون أخلاق سائر المدن الجائرة ، ولا ينبغي أيضا أن يكون بناؤها على وجه الماء لأنه يصيبها من الامواج والاضطراب ما يصيب أهل المدن التي على السواحل والبحار ، ولا ينبغي أن يكون بناء هذه المدينة في الهواء مرتفعا لكيلا يصعد اليها دخان المدن الجائرة فتتكدر أهويتها ، وينبغي أن تكون مشرفة على

سائر المدن ليكون أهلها يشاهدون حالات أهل سائر المدن في دائم الاوقات ، وينبغي أن يكون أساس هذه المدينة على تقوى الله كيلا ينهار بناؤها ، وأن يشيد بناؤها على الصدق في الأقاويل والتصديق في الضمائر ، وتتم أركانها على الوفاء والامانة كيما تدوم ويكون كمالها على الفرض في الغاية القصوى التي هي الخلود في النعيم (١) » .

ويصف اخوان الصفاء كيفية تفاوت أهل هذه المدينة ويرتبونه على أربع مراتب : احداها مرتبة أرباب الأركان الاربعة ذوي الصنائع ، والثانية مرتبة ذوي الرياسات ، والثالثة مرتبة الملوك ذوي الأمر والنهي ، والرابعة مرتبة الالهيين ذوي المشيئة والارادة (٢) .

« واعلموا ان دولة أهل الخير يبدأ اولها من أقوام أخيار فضلاء ، يجتمعون في بلد ، ويتفقون على رأي واحد ، ودين واحد ، ومذهب واحد ، ويعقدون بينهم عهدا وميثاقا بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون ، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٤ ص ١٧١ .
(٢) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٣ ص ٣٠٤ .

بعضهم بعضا ، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم ، وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم ،وفيما يقصدون من نصرة الدين ، وطلب الآخرة ، لا يعتقدون سوى رحمة الله ورضوانه عوضا٠٠ »٠

هذه الكنايات والرموز لا شك تدل دلالة واضحة على أن جماعة اخوان الصفاء هم الذين خططوا ووضعوا نواة الدعوة الاسماعيلية ، التي كان من ثمراتها قيام الدولة الفاطمية في المغرب ، ثم في مصر ، واليمن ، على الأسس والمرتكزات التي نوه عنها الاخوان في رسائلهم ٠

وفي عرفي ، ان كل المدن العلمية الفاضلة التي قال بها اخوان الصفاء ، والفارابي ، ودعاة الاسماعيلية ، وغيرهم من علماء الشيعة ، مستقاة من قول النبي (ص) : « أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت من الباب » ٠

« تمت »

الفهـــرس